رواية

الأبواب السبعة

هشام البراوي

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور- الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف: ٠١٠٠٠٠٣٢٨٨٥٩٦

بريد إلكتروني: gmail.com@yahoo.com@Dream.Pen92

الأبواب السبعة

هشام البراوي

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠٢٣
مصمم الغلاف: زهو عبد الحميد
تدقيق لغوي: تقى البشلاوي
تنسيق: أميرة محمود
رقم الإيداع:٢٠٢٣/٥٦٦١
987-977-6991-95-8:**I.S.B.N**

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من الوسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار.

مُقدِّمة

نظر عمر لساعة يده ظنًّا منه أنَّ ساعة الحائط لا تعمل بدقة، فوجد أنَّها بالفعل تخطَّت السابعة، سادت بينهم حالة من الصمت التام حيثُ لا يصل إلى مسامعهم إلا أصوات دقات عقارب الساعات، استمرَّت هذه الحالة من الصمت والترقُّب لدقائق تمر بهم وكأنَّها السنوات ثم نظر الحفيد إلى ساعة هاتفه الجوال ليجدها تخطَّت السابعة وخمس دقائق، فانتفض عصام مُسرعًا إلى غرفة نومه ليأتي بساعة يده ناظرًا إلى عقاربها والتي تسير في اتجاه السابعة وعشر دقائق، ثم نظر إليهم وقد سادت وجوههم علامات التعجُّب والدهشة والحيرة الممتزجة ببعض السعادة مع الحذر، الجميع جالسون يتابعون تحرُّك عقارب الساعات ومرور الثواني والدقائق، بينما عصام ما زال ممسكًا بساعة يده ناظرًا إليها متابعًا تقدُّم عقاربها، الساعة الآن السابعة وعشرون دقيقة، ماذا يحدث؟ هل انتهى الأمر؟! هل انتهت تلك السنوات التي مرَّت في أيام معدودات لأكمل ما تبقى لي من العمر بصورة طبيعية كأي إنسان؟

"مدينة الفيوم الجديدة ١٩٧٠ م"

انتقل عصام -وهو في العاشرة من عمره- برفقة والدته بعد أن تُوفِّي والده منذُ ستة أعوام؛ نتيجة لإصابته بمرض خطير إلى مدينة الفيوم الجديدة، وهي من المناطق البِكر التي تستقبل القليل من السكان في تلك الفترة، حيثُ قررت والدته أن تكرِّس حياتها لتربيته، لم يكن بالمدينة سوى مدرسة واحدة للثلاث مراحل (الابتدائية والإعدادية والثانوية)، كما أنَّ المنزل الذي يسكن به عصام ووالدته مكوَّن من ثلاثة طوابق الطابق الأرضي (تجاري) والأول العلوي يسكن به عصام ووالدته والثاني العلوي تسكن به أسرة صغيرة مكونة من أب وأم وابنتهما (منى) بعمر الخمس سنوات، وقد سادت العلاقة بين الجيران في المنزل الواحد الود والأُلفه وحُسن الجوار، فكانت كثيرًا ما تأتي أم منى للجلوس مع أم عصام في منزلها أثناء تواجد زوجها بعمله؛ لتجلسا معًا في شُرفة المنزل تتسامران أو تتابعان مسلسلًا تليفزيونيًا، وبالطبع كان الطفلان عصام ومنى يلعبان معًا في شقتهما أو على درج المنزل أو أمامه تحت أعين أمهما، حاول عصام في إحدى المرات أن يصطحب مُنى إلى تلك المنطقة الجبيلة البعيدة المحيطة بمنزلهم ليقوما بمغامرة من مغامرات الطفولة؛ حيثُ يختبئ الوحش العملاق خلف الجبل فيصارعه عصام ويقتله ويحصل على الكنز الذي يخفيه الوحش تحت الأرض، إلا أنَّ والدته لاحظت اختفاءهم

عن العيون وهرعت هي ووالدة منى إلى الشارع؛ لتلحق به قبل الاقتراب من المنطقة الجبلية.

كانت سلمى (أم عصام) تعمل ممرضةً بأحد المستشفيات الخاصة بالإضافة إلى الإشراف التمريضي على بعض الحالات المنزلية الخاصة؛ لتستطيع تدبير أمور حياتها وولدها.

مع بداية العام الدراسي الجديد التحقت (منى) بالمدرسة لأول مرة بالصف الأول الابتدائي، وبالطبع كان (عصام) يصطحبها للمدرسة ذهابًا وإيابًا.

مرَّت أعوام يسودها الهدوء والاستقرار بخلاف بعض المشكلات البسيطة التي تواجه أي أسرة مصرية ويتم حلها بهدوء ثم تعود الحياة لطبيعتها، كانت العلاقة بين منى وعصام هي الأخوة والصداقة، إذ كان يكبرها بخمسة أعوام، ودائمًا ما يراها الطفلة الصغيرة التي تحتاج للنُّصح والتوجيه، أمَّا قلبه فقد كان متعلقًا منذُ نعومة أظافره بابنة خالته (وفاء) التي تصغره بثلاث سنوات، والتي تعيش مع خالته وزوجها وأخيها في إحدى قُرى محافظة الفيوم، وكانا يتبادلان الزيارات في الأعياد والمناسبات بينما كان عصام ووفاء يتبادلان الحديث بصورة يومية عبر الهاتف.

أنهى عصام دراسته الثانوية ليلتحق بكلية الحقوق جامعة بني سويف، ولم يُرِد أن يُقيم ببني سويف؛ حتى لا يترك والدته بمفردها ولم يكن الأمر صعبًا؛ حيثُ إنَّ المسافة بين الفيوم وبني سويف تستغرق نصف ساعة على الأكثر، كان والد منى شديد العصبية، ودائمًا ما أمدَّها بالطاقة الإيجابية التي تعينها على تحمُّل تلك العصبية المفرطة، كما أنه كثيرًا ما برَّر لها أنَّ تلك العصبية المفرطة هي حُب لها وخوف عليها، إذ أنَّ عصام الآن بالفرقة الأولى بكلية الحقوق ومنى بالصف الأول الإعدادي، فكان لها بمثابة الأخ الأكبر الناصح والموجِّه والمكمِّل لدور الأب والأم.

بدأ عصام في العمل في أحد مكاتب المحاماه بهدف التدريب على العمل وكسب القليل من المال؛ ليساعد والدته على أعباء الحياة، بالطبع لم يعمل محاميًّا؛ لأنَّه ما زال طالبًا بكلية الحقوق ولم يحصل على الليسانس بعد، ولكن كان يعمل مساعدًا في بعض الأعمال الكتابية والإجراءات القضائية الروتينية.

مع بدء اندماج عصام في العمل والدراسة شعر أنَّه يستطيع أن يتحدث مع والدته بخصوص (وفاء) حبيبته وابنة خالته، فمنذُ بدأ عصام العمل وأصبح يقضي معظم أوقاته خارج المنزل ما بين دراسته وعمله لتبقى والدته معظم الوقت وحيدةً بالمنزل ولن يجد أفضل من (وفاء) حبيبته لتكون له عونًا وسندًا وتكون لوالدته أنيسًا في وحدتها, وافقت والدة

عصام على الفور بعد أن علِمت أنَّه ينوي الزواج من ابنة خالته، والتي تعلم عنها بالطبع كل شيء ليتفقوا على إتمام الزفاف نهاية شهر مايو ١٩٨٠ بعد انتهاء العام الدراسي، ليتم الزفاف بحضور الأهل والأقارب والجيران في أجواء احتفالية بسيطة.

"مدينة الفيوم الجديدة ٣١ ديسمبر– ١٩٨٠م"

فتح (عصام) خزانة ملابسه ليعد حقيبته؛ استعدادًا للقيام برحلته الخلوية الثانية، والتي كان يرتب لها منذُ أن عاد من رحلته الأولى لنفس المكان، هي رحلة غير تقليدية لمنطقة جبلية تبعُد حوالي ثلاثة كيلو مترات عن منزلهم بمدينة الفيوم الجديدة، حيثُ يسكن (عصام) برفقة والدته وزوجته (وفاء) التي تحمل في أحشائها طفله الأول، إذ كان يرى هذه الجبال كل يوم من شُرفة المنزل، وقد انتظر وقتًا مناسبًا للقيام برحلة لهذه الجبال أشبه برحلات التخييم التي نشاهدها في أفلام هوليود، فكان (عصام) عاشقًا للمغامرة محبًّا لاستكشاف كل ما هو جديد.

أخبر (عصام) والدته وزوجته (وفاء) أنه سينطلق في هذه الرحلة اليوم قبل الغروب بوقت كافٍ ليشاهد الغروب عند وصوله لسفح هذا الجبل، وأنه قد يغيب يومين على الأكثر، أعدَّ عصام حقيبته ووضع بها ما يكفيه من طعام وشراب ولا مانع من اصطحاب كشاف مضيء وجهاز راديو وبوصلة وموقد للنار وبعض من الشاي والسُّكَّر والقهوة وبعض الأموال تحسُّبًا لأي ظروف قد تطرأ, تذكَّر عصام قبل أن يخرج من منزله أنه بحاجة إلى غطاء ثقيل؛ فالأكيد أنَّ الأجواء ستكون شديدة البرودة فيعود إلى غرفته ليأخذ إحدى (البطاطين) القديمة ثم يقوم بلفها بطريقة إسطوانية ويربطها جيدًا ليستطيع حملها في يده بسهولة ولا تكون ثقلًا

يُعيق سهولة حركته ليبدأ رحلته الثانية، والتي خطَّط أن تكون أكثر توسُّعًا من رحلته الأولى؛ حيثُ شاهد في رحلته الأولى ما يبدو وكأنه "كهف" بعيد، لكن لم يكن لديه مُتَّسَع من الوقت ليذهب ويكتشف هذا "الكهف".

انطلق عصام حاملًا حقيبته على كتفه مترجِّلًا إلى المنطقة الجبيلة التي كان عاشقًا للنظر إليها من شُرفة منزله، ثم ازداد عشقه لها عندما قضى بها ليلةً منذُ ما يقرُب من شهر، فقد قرَّر عند عودته من الرحلة الأولى أن يعاود الكَرَّة مرة أخرى خاصةً بعد أن شاهد ذاك الكهف البعيد نسبيًّا عن المكان الذي قضى فيه ليلته.

وصل عصام إلى قمة الجبل ليرى منطقته السكنية من أعلى قمة الجبل من مسافة بعيدة، وقد بدأت الشوارع والمنازل تضيء مصابيحها الكهربائية، فكانت تبدو ككتلة مضيئة خلابة المنظر وتحيطه الجبال والرمال التي تحتضن الشمس وقت غروبها في منظر بديع يعزله عن الواقع وروتين العمل والحياة اليومية.

فتح عصام حقيبته ليخرج موقد النار وكوبًا زجاجيًّا وبعضًا من الشاي والسكر، كما أخرج علبة سجائره من جيبه وملاءة سرير كان قد وضعها في حقيبته خلسةً دون أن تعلم زوجته بالطبع، ها هو افترش الملاءة على

الرمال وجلس في يده كوب من الشاي وشرع يدخن لفافةً من التبغ متأملًا الطبيعة المرسومة حوله؛ حيثُ تحتضن السماء قمرها الذي يبعث ضوءه الخافت وسط الجبال، وتحيطه النجوم التي تزيّن تلك السماء الشاسعة في لوحة فنية بديعة من صُنع البديع.

لم يشعر عصام بالوقت فإذا بضوء النهار قد بدأ يملأ الأرض من حوله، افترش عصام ملاءته وقرر أن ينام ساعات قليلة قبل أن يسير في اتجاه هذا الكهف الذي لا يعلم ما بداخله، فكان يودُّ أن يدخل إليه متيقظًا واعيًا لكل ما يراه.

ظهر يوم ١- يناير ١٩٨١

في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا سلَّطت الشمس ضوءها وحرارتها على عصام، فكانت كفيلةً بإيقاظه من نومه، لملم عصام أغراضه وانطلق في اتجاه الكهف الذي كانت له بوابة كبيرة تُوحي بأنَّه قريب إلا أنَّه استغرق ما يقرُب من نصف ساعة مترجلًا حتى وصل إليه، كانت بجوار الكهف خيمة متوسطة المساحة نسبيًّا تحيطها قطعة من الأرض ليست بالكبيرة تنبت بها بعض الحشائش الخضراء، لم يرَ عصام تلك الخيمة في المرة السابقة، يبدو أنَّ طبيعة الأرض غير المستوية وبُعد المسافة عن الكهف قد أخفتها عن عينيه، بجوار الخيمة بضعة من الخِرَاف والماعز وعدد من الطيور كالدجاج والبط، يبدو أنَّه ثمَّة أحد رُعاة الغنم بهذه الخيمة.

اقترب عصام من الخيمة دون أن يدخل إليها ليُلقي السلام على مَن بها.

- السلام عليكم.. هل من أحدٍ داخل الخيمة؟

خرج من الخيمة رجل ثم تبعه طفل صغير، كان شيخًا ذا لحية بيضاء يبدو على ملامح وجهه وهيئته أنَّه في العقد السادس من عمره، يرتدي جلبابًا يقترب لونه من البني الفاتح وعلى رأسه طاقية من نفس لون الجلباب تقريبًا.

- وعليكم السلام يا بُني، ماذا أتى بك إلى هنا؟

- أنا هنا لاستكشاف هذا الكهف، ماذا تفعل أنت هنا أيها الشيخ؟

- أنا هنا لأنَّ هذه خيمتي التي وُلِدت فيها وعشت بها مع أبي وأمي نرعى بعض الأغنام ونربي بعض الطيور، فهذه هي حياتنا، أروي أرضي وأغنامي ونشرب من بئر قريب, وأنت؟ ألَا تخشى من الدخول إلى الكهف؟

- وماذا أخشى؟ هو كهف في باطن الجبل فأنا لا أؤمن بوجود وحوش تسكن الكهوف وإن خرج لي مارد من الجن فسيكون أسعد أيامي، فكم أتمنى أن أرى عفريتًا! سمعت الكثير عن العفاريت لكني لم أرَهم قط، ادعُ لي يا شيخنا أن أرى عفريتًا يُحدِّثني وأحدِّثه.

نظر إليه الشيخ بدهشة وتعجب من جرأته واستهتاره ثم قال له:

- يا بُني.. عشت عمري بجوار هذا الكهف ومن قبلي عاش والدي، وليس لك عندي إلا النصيحة، لا تدخل هذا الكهف؛ فأنا أعلم عن هذا الكهف بعض الأشياء وليس كل شيء، ولا أستطيع أن أبوح لك بما أعرفه الآن، فلكل شيء وقته، ولكن كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن تذهب لمنطقة أخرى، فهناك العديد من

الأماكن الأثرية بمصر والكهوف الموجودة في العديد من المناطق الجبلية تستطيع أن تكمل رحلتك بها في أمان، كل ما أستطيع أن أقوله لك: "لا تدخل هذا الكهف".

نظر عصام إلى الشيخ نظرةً يملؤها التعجُّب ودهشة يمتزجان بسعادة، فهو كان يتمنى أن يحذِّره أحدهم من دخول الكهف ثم لا يستمع إليه ويدخل، فتكون قد اكتملت عناصر بداية المغامرة "غموض وتشويق وإثارة"، ثم قال له:

- يا شيخنا ﴿**فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [يوسف:٦٤]

وتركه عصام داخلًا إلى بوابة الكهف.

دلف عصام إلى الكهف بخطوات متزنة ليست بالمسرعة ولا بالبطيئة، فلا شكَّ أنَّ حديث الشيخ أدخل في قلبه بعض القلق؛ ممَّا أدَّى به إلى بعض الحذر (فلا مانع من قليلٍ من الحذر)، كان ضوء الشمس يضيء ممر المدخل الواسع للكهف، مشى عصام متأملًا جُدرانه الصخرية رائعة الجمال، والتي لم يرَ مثلها من قبل، ولا يستطيع أن ينحت مثلها أعظم نحَّات على هذه الأرض.

كان الكهف وكأنَّه تكوَّن من انفجار بركاني نتج عنه ممر واحد يضيق ويتسع ويرتفع وينخفض، بلغ ارتفاعه نحو ٢٥ مترًا، كما أنَّه مُحاط بصخور ذات أسقف ملونة، يبدو وكأنه مدينة أو قصر عملاق صُنِع خصيصًى ليسكنه أغنى أغنياء العالم، وقد أنفق عليه ملايين الدولارات ليخرج بمثل هذه الصورة الرائعة والجمال الذي لا مثيل له، كما كان يوجد به بعض آثار لهياكل عظمية لكلاب أو ذئاب والكثير من عُشَش الطيور.

بدأ ضوء الشمس ينحسر وتصبح الإضاءة داخل الكهف ضعيفة للغاية، فأخرج عصام الكشاف المضيء من حقيبته ليضيء أمامه لمسافة مناسبة يستطيع من خلال إضاءته أن يرى ما يريد من تفاصيل.

مشى عصام داخل الكهف مسافةً لا يستطيع أن يقدِّرها في هذا الممر الواسع حتى وصل إلى نهايته، وقد وجد أمامه حائطًا صخريًّا، حرَّك كشافه المضيء يمينًا ثم يسارًا ليجد ممرًّا ضيقًا عرضه قد يبلغ حوالي مترًا ونصف المتر وارتفاعه في حدود المترين، وبالطبع كان ممرًّا مظلمًا تمامًا ودون تردُّد أو تفكير دخل عصام إليه ليسير بخطوات بطيئة نسبيًّا، أخذ يتحسَّس الأرض من تحته فتارة يوجِّه الكشاف أمامه وتارةً تحت قدميه، فإذ بالممر مليء بالكثير من الهياكل العظمية التي لا يستطيع أن يميِّز نوع الكائن الذي تنتمي إليه.

ظلَّ عصام سائرًا في هذا الممر المعتم مدةً لا تقل عن ١٥ دقيقةً ليخرج من فوَّهة هذا الممر إلى غرفة واسعة، وما زال يحرِّك كشافه المضيء ناحية اليمين ليتفقَّد جُدرانها وقد نُقِشت عليها بعض النقوش باللغة الفرعونية القديمة وبعض الكتابات بلغات لا يعلمها، ولكنها بالطبع ليست حروفًا إنجليزية أو غيرها من اللغات المتعارف عليها، حرك عصام كشافه المضيء يسارًا ببطء ليجد مقبضًا خشبيًّا مثبَّتًا على حجر دائري، يبدو وكأنه باب وهذا هو المقبض الذي إن أمسكته ودفعته للأعلى يتحرك الباب الدائري حركةً دائريةً تُشبه حركة عجلة الدراجة أو السيارة فيُفتَح الباب، لم يُقدِم عصام على تحريك المقبض حتى يتفقَّد باقي جُدران هذه الغرفة، لكنه سيعود إلى هذا الباب بالتأكيد مرة أخرى.

حرَّك عصام كشافه المضيء يسارًا؛ ليرى أنَّ جُدران الجهة اليُسرى لا تختلف عن الجهة اليُمنى كثيرًا، فهي نقوش متشابهة إلى حدٍّ كبير، عاود تحريك كشافه في اتجاه الباب الدائري مرة أخرى فلاحظ أمرًا عجيبًا، فعلى يسار الباب الحجري ذي المقبض الخشبي يوجد ما يدل على وجود باب دائري آخر بنفس محيط الباب ذي المقبض الخشبي، ولكن يبدو أنَّه قد تم طمسه أو محاولة إخفائه بأن وضع عليه مادةً حجريةً مختلفةً عن جُدران الكهف اختلافًا كاملًا لتظهر آثار الإخفاء بوضوح بنفس محيط

الباب الحجري الدائري ذي المقبض الخشبي لمن يدقِّق النظر، ليخاطب عصام نفسه قائلًا:

- دعنا من الباب المخفي، فهناك ما هو ظاهر أمامي، لنرَ ما وراء الباب الظاهر أولًا ثم في المرة القادمة سأحضر معي من العدد وأدوات التكسير ما يمكنني من اكتشاف ما وراء الباب الذي حاول أحدهم إخفاءه.

أعاد توجيه كشافه المضيء إلى الباب ذي المقبض الخشبي ودقَّق في تفاصيله؛ فلاحظ وجود بعض النقوش التي تُداريها الأتربة، لذلك أخرج من حقيبته الملاءة التي كان قد افترشها أعلى الجبل وأزاح التراب عن الباب تدريجيًّا ليتضح أمام ناظريه ما تم نقشه على الباب، يبدو أنها حروف عربية تتضح له تدريجيًّا.

انتهى عصام من إزاحة كامل الأتربة الموجودة على الباب ليجد أنها بالفعل كلمة باللغة العربية، فالباب محفور عليه كلمة (الأول) مكتوبة بطريقة تُشبه الكلمات المكتوبة على بعض آثار الدولة المملوكية, نظر عصام إلى الكلمة وعلى وجهه علامات الدهشة فكل النقوش المحفورة على جُدران الغرفة كُتِبت إمَّا باللغة الفرعونية وإمَّا بحروف غريبة لم يعرفها من قبل، إلا هذا الباب فقد كُتِب عليه كلمة (الأول) باللغة العربية، فسَّر عصام

كلمة "الأول" على أنَّها أمر طبيعي، فهذا الباب هو الأول والباب المطموس معالمه هو الثاني.

سلَّط عصام كشافه المضيء على ساعة يده ليعرف كم استغرق من وقت للوصول إلى هذا الباب، فوجد أنَّها الثانية عشرة ظُهرًا إلا بضع ثوانٍ، ليحتفظ في ذاكرته أنَّه وضع قبضتَي يديه على المقبض الخشبي للباب الحجري الأول في هذا اليوم.

١يناير– ١٩٨١ (الثانية عشرة ظهرًا)

أدار عصام الباب الحجري ليتحرك بطريقة دائرية ويبدأ بالكشف عمَّا وراءه، انبعث من خلف الباب ضوء شديد لا تستطيع عيناه تحمُّله، فأدار وجهه بعيدًا عن الضوء وتستمر يداه في دفع الباب بالقدر الذي يمكِّنه من المرور عبر تلك البوابة، مرَّ عصام من البوابة مغمضًا عينيه من شدة الضوء وما هي إلا لحظات ليشعر أنَّ الضوء بدأ في أن يصبح خافتًا.

وما إن فتح عصام عينيه حتى تجهَّم وجهه وتجمَّد جسده ممَّا يراه الآن، فهو يقف في صالة شقته وكأنه قد تم تغيير باب شقته الخشبي واستبداله بهذا الباب الحجري الدائري، نظر عصام خلفه سريعًا ليتأكد أنَّ ما يوجد وراءه ليس باب الكهف الحجري وإنَّما هو باب شقته، مشى عصام ببُطء في صالة شقته وهو يدور حول نفسه في حالة ذهول ممَّا حدث، هل ما حدث حقيقة أم خيال؟ هل دخلت بالفعل إلى كهف مسحور؟ أم أني ما زلت نائمًا على تلك الملاءة على سفح الجبل وما هذا إلا حلم أراه في منامي؟

وقف عصام مكانه ليحاول استيعاب ما حدث، جال بنظره نحو أثاث شقته وقد حدثت به بعض التعديلات، فألوان كراسي المائدة مختلفة عمَّا كانت عليه بالأمس، كما يوجد سُترة جديدة تغطي طاقم (الأنتريه)

الموجود بالصالة، وهذا جهاز تلفاز جديد على نفس المنضدة ونفس مكان الجهاز القديم، أخذ يتفقَّد غرف شقته ليلاحظ بعض التغيُّرات في كل غرفة، متى حدث هذا التغيير وأين ذهبت وفاء في هذا الوقت؟!

لم يفكر عصام في النظر إلى ساعة يده، إذ خرج مسرعًا من إحدى الغرف متجهًا إلى الصالة لينظر في ساعة الحائط التي لا تزال في مكانها، ليجد أنَّها الثانية عشرة وخمس عشرة دقيقةً، فاطمئن قليلًا أنَّ التوقيت يسير في اتجاهه الصحيح، خاطب عقله بأنها بالفعل كانت مغامرةً عجيبةً في كهف مسحور، ولكن متى حدثت هذه التغيُّرات في المنزل؟ فقد تركتهم أمس في الخامسة مساءً لأعود ظهر اليوم، فكيف أجد كل هذه التغيرات؟ عندما تأتي وفاء وأمي سأعرف الكثير من التفاصيل، وضع عصام حقيبته التي كانت لا تزال على كتفيه فوق المائدة وذهب إلى دورة المياه، فهو في أشد الحاجة إلى أن يغتسل ليزيل غبار الكهف من على جسده، بدَّل ملابسه واتجه للمطبخ ليفتح باب (الثلاجة) باحثًا عن أي طعام يأكله ليجد بعض الفاكهة فيأكل منها ثم يذهب إلى غرفة نومه لينال قسطًا من الراحة.

نظر عصام إلى المنبه الموضوع على الكومود بجوار سريره ليرى أنَّ الساعة قد أصبحت الواحدة تمامًا، ثم دخل في سُباتٍ عميق وكأنه لم يذُق طعم النوم منذُ أيام.

أخذت عقارب المنبه المجاور لسرير عصام تتحرك لتصل إلى الساعة الثالثة والربع، فانتفض مرعوبًا من فراشه بعد سماعه أصوات صراخ شديدة في غرفة نومه ليقف بجوار فراشه محاولًا استجماع قُواه، فإذ بزوجته (وفاء) أمامه تصرخ بشدة، وقف بجوارها ممسكًا بملابسها في حالة من الخوف والهلع، طفل صغير ما بين السابعة أو الثامنة من عمره، نظر عصام إليها متعجبًا ومتسائلًا:

- ماذا بكِ يا وفاء؟ لماذا تصرخين؟

تسمَّرت وفاء مكانها تنظر إليه في حالة ذهول تغمر عيناها الدموع، ثم جثَت على ركبتيها ودخلت في نوبة بكاء هيستيرية، ليهرع إليها عصام فيحتضنها بين ذراعيه مكررًا سؤاله:

- ماذا بكِ يا وفاء؟ لماذا تبكين؟ هل أمي بخير؟ هل حدث لها مكروه؟

نظرت إليه وفاء متعجبةً وقد غزَت عيناها الدموع والدهشة لتسأله:

- أين كنت طوال هذه السنوات؟ أين ذهبت؟ بحثنا عنك في كل مكان ولم نجد لك أثرًا، بحثنا عنك في الجبل وبحثنا عن الكهف الذي أخبرتنا أنك ذاهب إليه فلم نجد لك أثر في الجبل، ولم نجد

أثرًا لأي كهف ظننا أنَّه قد افترسك حيوان مفترس أو غرقت في الرمال، أين كنت؟!

تجمَّدت ملامح عصام مذهولًا ممَّا تقول، ونظر إليها متسائلًا:

- عن أي سنواتٍ تتحدثين؟ لم أترك منزلي إلا ليلةً واحدة, ذهبت إلى الجبل بالمساء وهأنذا اليوم أقف أمامكِ.

صرخت وفاء في وجهه قائلة:

- أنت مجنون؟ غبت عنَّا سبع سنوات كاملة، كِدنا نفقد عقولنا أنا وأمك ونحن نبحث عنك في كل مكان.

هرول عصام في اتجاه الصالة ناظرًا إلى النتيجه المعلَّقة على الحائط ليجد أنَّ تاريخ اليوم هو (الجمعة - ١ يناير – ١٩٨٨)

بينما ينظر عصام إلى النتيجة غير مصدِّق لما حدث فُتِح باب الشقة فإذ بوالدته تدخل فالتفت عصام إليها، وما إن نظر في عينيها حتى تجمَّد جسدها وسقطت على الأرض فاقدةً الوعي، هرع عصام إلى والدته يحاول إفاقتها دون جدوى ليحملها بين يديه مسرعًا خارجًا من شقته، نزل إلى الشارع حاملًا أمه بين ذراعيه ليوقف إحدى سيارات الأجرة ويطلب منه

الذهاب لأقرب مستشفى، لحقت به وفاء وصغيرها مسرعين لتستقل معه نفس السيارة بعد أن قالت للسائق:

- اذهب إلى مستشفى دار الشفاء.

(هذه هي المستشفى التي تعمل بها والدته "ممرضة")

نظر عصام إلى الطفل الصغير سائلًا وفاء: هل هذا هو.. ابني؟

أجابته وفاء:

- نعم.. (عمر) ابننا، وهو الآن في السابعة من عمره.

وما هي إلا دقائق ووصلت السيارة إلى المستشفى، نزل عصام من السيارة حاملًا والدته، وما إن دخل من باب المستشفى حتى أتوا له (بالترولي) الخاص بحمل المرضى لتدخل إلى غرفة الاستقبال ويتم غلق الباب ليفحصها الطبيب، وقف عصام خارج غرفة الكشف ينظر تارةً إلى وفاء والتي تنظر إليه وتحمل عيناها آلاف الأسئلة وينظر تارةً إلى عمر.. نجله الذي تركه مع غروب شمس الأمس ليعود ظهر اليوم فيجده وقد أصبح في السابعة من عمره.

فتح باب غرفة الكشف ليخرج الطبيب ويطمئنهم موضحًا لهم أنَّ والدته تعرَّضت لصدمة شديدة، ولكن حالتها مستقرة ويستطيع اصطحابها إلى المنزل في غضون ساعة أو أقل.

نظر عصام للطبيب متسائلًا:

- هل عاد لها وعيها؟

أجابه الطبيب:

- نعم، هل أنت عصام؟
- نعم، أنا.

فأخبره الطبيب أنَّها لا تردِّد إلا كلمة عصام وأذن لهم الطبيب بالدخول شريطة ألَّا تتعرَّض لأي انفعال.

فتح عصام باب الغرفة ليدخل ووراءه وفاء وعمر، فوجد والدته أمامه على سرير المستشفى تفتح له ذراعيها وقد امتلأت عيناها بالدموع، بخطوات سريعة يُلقي عصام بنفسه بين أحضان والدته الباكية قائلةً له:

- كنتُ على يقين أنك ستأتي يومًا ما، كنتُ على يقين أنك ما زلت على قيد الحياة، لم أصدِّق كل مَن قال لي أني لن أراك مرة أخرى، أين كنت يا بُني؟ ماذا حدث لك؟

نظر إليها عصام وقال:

- عندما نعود للمنزل سأحكي لكِ كل شيء.

نظر عصام إلى عمر ولده ومدَّ يده إليه، فنظر إليه عمر وهو ممسك بفستان والدته لا يريد أن يتركها، فهو لا يعرفه ولم يرَه منذُ ولادته، نظرت وفاء إلى عمر قائلةً له:

- اذهب يا عمر، إنه والدك وأكثر مَن يحبك في هذه الدنيا، اذهب ولا تخَف.

مشى عمر بخطوات بطيئة تجاه والده، فاحتضنه عصام بشدة وقبَّله على جبينه مُحدِّقًا في ملامحه، فهو يُشبهه كثيرًا عندما كان في نفس عمره.

فتح باب الغرفة ودخل الطبيب ليمسك بيد سلمى (والدة عصام) ليقيس معدل النبض، ثم وضع جهاز الضغط حول ذراعها ليخبرهم أنها أصبحت بحالة جيدة وتستطيع الخروج, اصطحب عصام أسرته إلى المنزل ليجلسوا معًا ويبدأ في شرح ما حدث له منذُ خروجه من المنزل وحتى وصوله للباب الحجري الذي أعاده لمنزله بعد سبعة أعوام.

ارتسمت على وجهَي والدته وزوجته ملامح الدهشة وملأت عيونهما علامات التعجب ممَّا رواه عصام، ثم نهضت والدته وزوجته سائرين في اتجاه المطبخ؛ حيثُ نظرت إليه وفاء وقالت له:

- سنُعد لك الطعام؛ فأنت لم تأكل منذُ سبعة أعوام.

نظر عصام إليها مبتسمًا دون أن يقول شيئًا، ثم اتجه إلى عمر ليلعب ويضحك معه محاولًا إذابة ذلك الحاجز الذي تكوَّن نتيجة غيابه عنه طوال هذه السنوات، فها هو يعود إليه ثانية ولكنه يتمنى ألَّا يكون قد عاد متأخرًا.

ضغط عصام على زر تشغيل جهاز التلفاز الجديد ليُفاجأ أنَّ صورته ملوَّنة، وإذ ببداية نشرة أخبار الساعة السادسة.

يبدو أنهما انتهيتا من صُنع الطعام، وها هما والدته وزوجته تضعان الأطباق على المائدة يأكلون ويتسامرون وتعلو ضحكاتهم ثم تدخل وفاء إلى المطبخ لتحضر معها أكواب الشاي ليجلسوا معًا في شُرفة المنزل، أمسك عصام بكوب الشاي في يده محدِّقًا إلى تلك المنطقة الجبلية البعيدة التي قادته لتلك المغامرة الملعونة.

دقَّ جرس الباب فذهبت وفاء لترى مَن بالباب، فتحت الباب لتجد (منى) جارتهم وصديقة عصام والتي هي بمثابة أخته الصُّغرى، نظر عصام إلى

الباب ليجد منى أمامه وساعة الحائط المعلَّقة بصالة المنزل تدق فالتفت إليها ليجدها السابعة مساء.

ازدادت الإضاءة داخل الشقة بصورة غريبة حتى أصبحت كتلك التي كانت عندما فتح الباب الحجري بالكهف، أغمض عصام عينيه وأدار وجهه من شدة الضوء وما هي إلا لحظات حتى شعر أنَّ الضوء بدأ في أن يصبح خافتًا ليفتح عينيه فيجد نفسه داخل تلك الحجرة المعتمة في الكهف حاملًا حقيبته على ظهره وكأنه لم يغادره من الأساس، جنَّ جنونه واستشاط عقله وأخذ يدور حول نفسه صارخًا:

- لماذا عدتُ إليك مرة أخرى، لا أريد أن أكون هنا، أريد أمي وزوجتي وولدي عمر.

ثم جلس على الأرض وفتح حقيبته ليخرج كشافه المضيء وما لبث أن وجَّهه ناحية الباب الحجري ذي المقبض الخشبي محرِّكًا إيَّاه يمينًا ويسارًا، لكن حينما وجَّهه وراءه إذ به يتفاجأ بأنَّ هناك بابًا حجريًّا مغلقًا دون مقبض، وسرعان ما وجَّه الكشاف في الجهة الأمامية تجاه الباب ذي المقبض الخشبي الموجود أمامه، ليجده وقد كُتِب عليه باللغة العربية وبنفس الطريقة كلمة (الثاني).

حرَّك كشافه المضيء يسارًا فلم يجد أثرًا للباب المطموس، أخذ يهدأ قليلًا ثم تسارعت أنفاسه تدريجيًّا، عجز عقله عن التفكير أو استيعاب ما يحدث، وجَّه عصام كشافه المضيء إلى الباب الحجري (الثاني) مثبتًا نظره إلى مقبضه الخشبي.

- ماذا تخفي وراءك هذه المرة؟!

أدخل عصام كشافه المضيء داخل حقيبته وأمسك المقبض الخشبي بكلتا يديه ليدير الباب الحجري، وما إن تحرَّك الباب حتى توهَّج هذا الضوء الأبيض الذي لا يستطيع أحد أن يبقي عينيه مفتوحتين من شدته، استمرَّ في تحريك الباب مغمضًا عينيه وحرص على التحرك ببطء ليمر إلى الجهة الأخرى من الباب، وما هي إلا لحظات حتى أخذ الضوء في الخفوت تدريجيًّا ففتح عينيه.

وجد نفسه واقفًا في الدور الأرضي بالمبنى الخاص بالتعليم الثانوي بمدرسته القديمة في وقت الراحة وطلاب المرحلة حوله يتحدثون ويمزحون ويتبادلون الضحكات، التفت يمينًا ويسارًا محاولًا إدراك ما يحدث ليرى أمامه وعلى بُعد مسافة ليست بالبعيدة ما جعل جسده يتجمَّد وتظهر على وجهه ملامح الاندهاش (هو يرى نفسه أمام عينيه) وهو يجلس مع أحد الطلاب على درج السلم المؤدي للدور الثاني، نعم..

يجلس على درج السلم مرتديًا سرواله الكحلي وقيمصه السماوي ويتحدث مع أحد الطلاب، تقدَّم عصام ببطء شديد حتى لا يُلفت الانتباه ودقَّق في تلك الملامح التي يعرفها جيدًا فكأنه ينظر إلى نفسه بالمرآة عندما كان طالبًا بالمرحلة الثانوية، ثم سمع صوت الجرس الذي ينذر بانتهاء الراحة وعودة الطلاب إلى قاعات الدراسة، نظر إلى نفسه وهو ينهض صاعدًا الدرج متجهًا إلى قاعته، تحرَّك وراءه بخطوات مسرعة حتى لا يغيب عن نظره ويتابعه إلى أن دخل إلى قاعة الدراسة، لتقع عينه على اللوحة المكتوبة على باب القاعة (١٠/١) فتسمَّر مكانه بُرهةً فقد بدأ يعي ما يراه، فلم يكن عصام بفصل (١٠/١) عندما كان بالصف الأول الثانوي، بل كان بفصل (٦/١)، هو يتذكَّر جيدًا، ليتيقَّن أنَّه لم يكن يرى (نفسه) أثناء المرحلة الثانوية، بل هو ابنه (عمر)، نعم.. فقد مرَّت سبع سنوات أخرى و(عمر) الآن في الرابعة عشر من عمره وهو بالصف الأول الثانوي، اقترب من القاعة ليرى التاريخ المكتوب أمام الطلاب.. نعم.. إنه الأحد ١- يناير – ١٩٩٥.

وقف عصام مكانه ليفكر في هذه الدوامة التي دخل في أعماقها ولا يعرف كيفية الخروج منها فيعجز عقله عن مواصلة التفكير، التفت حوله ليسأل أحدهم عن مكان غرفة المعلمين، ومن ثَمَّ اتجه إلى غرفة المعلمين ليسأل عن معلمي فصل (١/ ١٠) فأشار له أحدهم إلى أحد المعلمين الجالسين على بُعد خطوات، تقدَّم إليه عصام ليلقي عليه السلام:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- أنا عصام والد (عمر عصام) الطالب بفصل (١٠/١)، كنتُ مسافرًا لفترة طويلة وعدتُ اليوم، وأريد أن أسأل عن سلوكه ومستواه الدراسي.

- حمدًا لله على سلامتك.. أنا الأستاذ ماجد مدرس مادة الرياضيات، عمر طالب متوسط المستوى بناءً على درجاته في اختبارات الشهر وتفاعله معي أثناء الحصة، ولكني على يقين أنَّ عمر لديه الكثير؛ فهو شخص على درجة عالية من الذكاء ينقصه فقط بعض التركيز ودائمًا ما أرى في عينيه نظرةً حزينةً لا أعرف سببها، فهو قليل الضحك وليس له الكثير من الأصدقاء، وأريد أن أعلِمك بشيء آخر، ولكن بعد أن تعِدني بأن تتصرف بحكمة.

- أعِدك بأن أتصرف بحكمة.

- تم ضبط عمر مرتين وهو يدخِّن السجائر بدورة مياه الطلاب بالمدرسة، وقمت شخصيًّا بوقف قرار فصله من المدرسة بعد ما تعهَّدت لمدير المدرسة شخصيًّا أنَّ هذا لن يتكرر.

نظر عصام إلى الأستاذ ماجد بملامح جامدة ثم قال له:

- أريد أن أستأذنك في أمرٍ ما، أريد أن أبقى بالقرب من فصله؛ حتى أراقبه أثناء عودته إلى المنزل، ولا أريده أن يعلم أني عدتُ من سفري، فأنا لا أعرف كيف ستكون ردة فعله فقد غِبت عنه طويلًا.
- بالتأكيد، لا مانع أن تنتظره.
- شكرًا لك أستاذ ماجد.

نهض عصام تاركًا غرفة المعلمين ثم التفت مرة أخرى إلى الأستاذ ماجد ليسأله:

- من فضلك أين دورة المياه؟
- انتظر، سأعطيك مفتاح دورة المياه الخاصة بالمعلمين.

أخذ عصام المفتاح وهو يبتسم له ابتسامةً خفيفةً بعد أن وصف له ماجد مكانها ليفتح الباب ويدخل، ثم لاحظ وجود مرآة بجواره، لم ينظر في المرآة منذُ وقت طويل وما إن رأى نفسه حتى لاحظ تغيُّر ملامحه وأنه عندما فتح الباب الأول كان عمره ٢١ عامًا وبعد أن دخل إلى الباب الثاني أصبح عمره ٣٥ عامًا، فالزمن لا يمر بمَن حوله فقط، بل يمر به أيضًا ويتقدَّم به العمر دون أن يعيش تفاصيل مراحله.

جلس عصام على أحد الكراسي في مكان ليس ببعيد عن فصل ١٠/١ حيثُ يوجد عمر، فكر عصام فيما يمر به من أحداث عجيبة ثم فكر في عمر، ذلك الشاب الذي يعيش مرحلة المراهقة من حياته بلا أب، تُرى بماذا برَّرت له أمه وجدته غيابي عنهم؟ كان يجب أن أكون بجواره في هذا التوقيت، فلا يوجد أنسب مني (أنا والده) لأكون له الصديق والأخ والأب والناصح والمقوِّم، ولكنها إرادة الله.

صوت الجرس أخرج عصام من أفكاره المتداخلة فركَّز نظره على قاعة عمر الذي خرج برفقة صديقه نازلًا إلى فناء المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، نهض عصام ثم تبعه بخطوات متزنة؛ كي لا يلحظ أنَّ هناك مَن يتتبَّع خطواته، خرج عمر من باب المدرسة مع صديقه، ولكن لم يمشِ في اتجاه المنزل، بل في اتجاه مدرسة الفتيات المجاورة لمدرسته ليقف أمامها وصديقه أثناء خروج الطالبات من بوابة المدرسة، لم يكن في المدينة إلا مدرسة مشتركة واحدة لجميع المراحل، والآن هناك مدرسةً للبنين وأخرى للفتيات، بالتأكيد ١٤ عامًا ليست بالوقت القليل.

تقدَّم عمر وصديقه باتجاه فتاتين خارجتين من بوابة مدرسة الفتيات ليتصافحوا مبتسمين ويتجهوا مترجلين إلى وسط المدينة.

وصل وصديقته إلى أحد الكافيهات بوسط المدينة ليجلسا في ركن بعيد عن العيون، وأجلس أنا بنفس الكافيه ولكن في مكان بعيد عنهم نسبيًّا؛ حتى لا أكون لهم عزولًا ولا يلاحظ أنَّ هناك مَن يراقبه، جلس عمر أمام صديقته يتهامسان بالكلمات الباسمة ولا مانع من أن يحاول أن يلمس يدها بين الحين والآخر لتسحب يدها بابتسامة خجل، يُحدِّثها بهمس الكلمات وتنظر له بعيون لامعة ثم يسود الصمت بينهما لحظات لتتحدث العيون بما قد تعجز الكلمات عن قوله، أخرج عمر سيجارةً من جيبه لتمسك صديقته بيده؛ حتى لا يشعلها، ابتسم عمر وحدَّثها بكلمات هامسة ثم وضع السيجارة في جيبه مرة أخرى دون أن يُشعلها.

ماذا يحدث؟ ترك نجله جنينًا في بطن أمه منذُ يومين فقط ثم يراه اليوم شابًّا يافعًا يجلس مع حبيبته يحاول اختلاس قُبلةً دون جدوى, تذكَّر وفاء ومكالمات الليل التي كانت تنتهي مع أذان الفجر، كم إشتاق لرؤيتها!

ها هو عمر ينهض وصديقته لأستدعي النادل وأسأله عن حساب الشاي والقهوة وأدعو الله أن تكون العملة كما هي ولم تتغير، أخذ ثمن المشروبات وأخذت باقي النقود لألحق بعمر وصديقته، كان صديق عمر ما زال يجلس مع حبيبته في الدور الأرضي من الكافيه، ألقى عمر السلام على صديقه وخرج ثم ودَّع صديقته وبدأ يمشي في اتجاه العودة للمنزل تتبعته بخطوات متزنة، وما إن تأكَّد عمر من غياب حبيبته عن عينيه

حتى أخرج السيجارة من جيبه وأشعلها، لم أستطع أن أصبر أكثر من ذلك، فمنذُ أن أدركت أنه عمر وأنا أريد أن أضمه إلى صدري، لا أستطيع الصبر، تسارعت خطواتي تجاهه حتى اقتربت منه، فلاحظ أنَّ أحدًا خلفه، وقف عمر ونظر خلفه وما إن رآني حتى نظر إليَّ بنظرة استغراب وكأنه يسأل نفسه:

- هل أعرف هذا الرجل؟

ظلَّ عمر ينظر لعصام للحظات وكأنه يريد أن يتذكَّر أين رأى هذا الرجل من قبل؟ في الوقت الذي كان فيه عصام صامتًا ينظر فقط في عينيه ويمنِّي نفسه بأنه سيعرف أنه والده.

تقدَّم عمر نحو والده مسرعًا ليعانقه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع فضمَّ عصام ولده إلى صدره باكيًا، فقال له عمر:

- هل اعتقدت أني لن أعرفك؟ افتقدتك كثيرًا يا أبي، كم كنت أحلم بهذا اليوم الذي أراك فيه! تخيَّلت كثيرًا أنك تجلس أمامي لأحدِّثك بما في نفسي، عندما أمر بضيق كنتُ أشكو إليك وعندما أشعر بالسعادة كنت تشاركني سعادتي، افتقدتك كثيرًا يا أبي.

تأمَّل عصام وجه عمر بعينين دامعتين ليقبِّله قائلًا له:

- أنا أيضًا افتقدتك كثيرًا يا بُني.

أمسك عمر بيدي والده فقبَّلها قائلًا له:

- قصَّت لي أمي وجدتي كل شيء، فأنا أعلم بقصة الجبل والكهف، وكنت أذهب إلى الجبل كل يوم جمعة لأبحث عن هذا الكهف فلم أجده...

فقاطعه والده:

- إيَّاك أن تقترب من هذا الجبل، إيَّاك أن تذهب لهذا الكهف فلن تتحمَّل أمك وجدَّتك فُقدانك كما فقدوني، أنت رجل هذا البيت، فكُن رجلًا بمعنى الكلمة، كان ينبغي أن أكون أنا الرجل المناسب الذي يتحمَّل مسؤوليتكم ويسعى لتوفير سُبل الراحة والسعادة لكم، وشاء القدر عكس ذلك، فدائمًا ما أعود في الأوقات الخاطئة، وها قد جعلك القدَر مسؤولًا عن هذا الأمر، فكُن أهلًا لما قدَّر لك الله، وكُن لهم عونًا وسندًا وقت غيابي.

ثم أردف عصام قائلًا وهما يسيران باتجاه العودة إلى المنزل:

- وكيف حال والدتك وجدتك؟

- هم في انتظارك، ألم تذهب إلى المنزل؟

نظر عصام إليه بدهشة ليتساءل: في انتظاري؟!

- نعم، فقد غبت في المرة الأولى سبع سنوات وعدت في أول يوم في العام الجديد، ونحن نتنظر عودتك اليوم، وهو أول يوم في العام الجديد بعد مرور سبع سنوات، هل جئت إلى المدرسة دون أن تذهب إلى المنزل؟

- لا، بل فتحت بوابة الكهف لأجد نفسي في المدرسة وأنت تجلس أمامي، ظننت عندما رأيتك أني أنظر إلى نفسي فأنت تشبهني كثيرًا حين كنت في نفس عمرك, انتظرتك حتى خرجتَ وسرتُ خلفك حتى التقيت صديقتك وجلست بنفس الكافيه في مكان غير ظاهر لعينيك، وبعد أن ودَّعت صديقتك رأيتني.

نظر إليه عمر باسمًا وقال:

- ليست صديقتي، بل حبيبتي.

التفت إليه عصام باسمًا ثم ينظر في ساعة يده قائلًا:

- يجب أن نسرع، أصبحت الساعة السادسة مساء.

ودون تفكير أشار عصام لإحدى سيارات الأجرة (تاكسي) ليستقلا السيارة في اتجاه المنزل.

نزل عصام وعمر من السيارة لينظرا إلى شُرفة منزلهما فإذا بوفاء وسلمى تجلسان في الشُّرفة وكأنهما في انتظاره، وما إن رأوه حتى هرولتا في اتجاه باب الشقة وعصام بدوره هرول في اتجاه المنزل وخلفه عمر ليحتضن أمه وزوجته على سلم العمارة ويصعدوا جميعًا إلى شقتهم، وقبل دخولهم للشقة سمع عصام لمن يناديه من أعلى السلم، فنظر فإذا هي (منى) وقد بدا على وجهها التقدم في العمر، فهي الآن في الثلاثين من عمرها, نزلت مسرعةً إليه فصافحها باسمًا وصافحته بعينين باكيتين، ثم التفت لزوجته قائلًا لها:

- منى بمثابة أختي الصغرى، بالتأكيد تفتقدني كما افتقدتموني.

وأردف: تفضَّلي يا منى، فلستِ غريبةً عنَّا.

- لا، بل سأتركك مع عائلتك، حمدًا لله على سلامتك.

أشار إليها عمر برأسه باسمًا، فصعدت منى السلم ودخل عصام إلى شقته مع عائلته، احتضنته أمه وزوجته بشدة باكيتين، فسألته أمه:

- أمَا آن لهذا الأمر أن ينتهي يا عصام؟

- أمي.. لم يتبقَّ الكثير من الوقت، دعينا نجلس معًا قليلًا، فلا إجابة لديَّ لأي أسئلة.

جذبته وفاء من يده ناحية المائدة وقالت:

- أعددت لك الطعام، اجلس لتأكل.

فجلس عصام وبجواره والدته وزوجته وابنه عمر ليتناولوا الطعام معًا وينظرون جميعهم إلى ساعة الحائط بالتناوب، ثم فرغوا من الطعام لينظروا إلى الساعة فإذ هي السابعة إلا ربع مساء، جلس عمر على الأريكة وعلى يمينه والدته وهو يحتضنها ويحتضن بيده اليُسرى زوجته وولده عمر، أخذوا ينظرون جميعًا إلى ساعة الحائط دون أي حديث فلا يوجد ما يُقال، فجميعهم في انتظار ذلك الوميض الأبيض اللعين، أمَّا عصام فتارةً ينظر إلى والدته وتارةً إلى زوجته وولده ليقبِّل أمه على جبينها ثم زوجته وولده عمر، فلا يوجد ما يُقال وإن وُجِد فلا وقت لقوله، ثم دقَّت الساعة معلنةً تمام السابعة مساءً ومعها بدأ الضوء الأبيض في الظهور ثم اشتدَّ تدريجيًا ففتح عصام عينيه ليجد الظلام الدامس وقد عاد يحيط به مرة أخرى داخل غرفة جديدة من غرف الكهف.

جلس عصام على الأرض وسط الظلام داخل غرفة الكهف، فتح حقيبته مسرعًا وأخرج كشافه المضيء ليوجِّهه باتجاه الباب وقد نُقِشت عليه أيضًا باللغة العربية كلمة (الثالث).

وسرعان ما حدَّد مكان المقبض الخشبي وأمسكه بكلتا يديه، فهو لم يتحدَّث في تلك الزيارة إلى أمه ولا زوجته، ما زال يفتقدهما بشدة والأكيد أنهما تفتقدانه بصورة أكبر فهما تغيبان عنه دقائق معدودة وهو يغيب عنهما سبع سنوات كاملة.

فتح الباب الثالث ليشتد الضوء الأبيض ثم يخفُت ضوؤه، وما إن فتح عينيه حتى وجد نفسه واقفًا بأحد شوارع المدينة وبالتحديد أمام العمارة التي يتواجد بها مكتب المحاماه الذي يعمل به، نظر عصام حوله إلى تلك المباني الكثيرة التي لم تكن موجودةً من قبل، ولاحظ التغيُّر في ملابس الشباب والفتيات من حوله وذلك الزحام الذي يملأ الشوارع، فهناك الكثير من البشر والسيارات والدراجات النارية والأجواء المحيطة به يملؤها الغبار وعوادم السيارات، كما لاحظ أنَّ معظم الناس يمسكون بأيديهم جهازًا يُشبه اللاسلكي وبعضهم يتحدث من خلاله.

نظر عصام في ساعة يده فإذا هي الثانية عشرة وخمس دقائق، ثم التفت إلى باب العمارة التي يتواجد بها مكتب المحاماه الذي يعمل به، ليجد امرأةً بجوارها رجل يخرجان من تلك العمارة، ما لفت انتباهه أنَّ تلك المرأة

تشبه زوجته وفاء إلى حدٍّ كبير، اقترب عصام من البوابة دون أن يلاحظا وجوده ليدقِّق النظر فيجد أنها بالفعل وفاء زوجته وقد ازداد وزنها قليلًا، ولكن.. مَن هذا الرجل الذي تسير بجواره؟

نزلت وفاء برفقة هذا الرجل الذي فتح باب سيارته وترك لتجلس وفاء بجواره، فأشار عصام إلى سيارة (تاكسي) ليتبع تلك السيارة، والتي وقفت بجوار إحدى البنايات فنزل الرجل مُصطحبًا وفاء ليدخلا إلى تلك البناية، وسرعان ما أوقف عمر التاكسي وأخرج محفظته من حقيبته ليدفع للسائق الحساب، ثم دخل إلى البناية متتبعًا وفاء ليجد أنهما دخلا المصعد ليصعد بهما للدور السابع.

استدعى عصام المصعد مرة أخرى ليخرج منه في الدور السابع، فوجد أنها شقة واحدة بهذا الدور، سُرعان ما ضرب الجرس ليفتح الباب ويقف هذا الرجل ماثلًا أمامه، نظر عصام إليه ولا يعرف ماذا يقول، فسأله الرجل:

- مَن أنت؟

- مَن أنت؟ وماذا تفعل زوجتي عندك؟

- زوجتك؟! وفاء زوجتك؟ أنت عصام؟

- نعم، أنا عصام، ماذا تفعل زوجتي في شقتك؟

خرجت إليهم وفاء منفعلةً بعينين دامعتين:

- لستُ زوجتك، بل هو زوجي، قمت برفع قضية واستخرجت لك شهادة وفاة؛ لأنك متغيب منذُ فترة طويلة ثم تزوَّجته، أنا الآن زوجته، هل كنت تنتظر مني أن أنتظرك إلى ما لا نهاية؟ لا أعلم متى ستأتي ومتى ستغادر؟ هل كنت تنتظر أن أظل زوجةً لرجل كالشبح تركني وغادرني شهور حملي الأخيرة ثم يأتى لزيارتنا ساعات قليلة مرتين خلال أربعة عشر عامًا؟ هل نسيت أنني بشر كباقي البشر؟ هل نسيت أنني إنسانة تريد العيش في حياة مستقرة كأي إنسانة طبيعية؟ كان هذا الرجل عونًا لي في أصعب الظروف والأوقات، كان هذا الرجل هو الحماية والسند حينما شعرت أنني وحيدة أواجه مصاعب الدنيا وتحدياتها بمفردي، اذهب يا عصام واستمتع بمغامراتك واستكشافك للكهوف والغرائب واتركنا نعيش كما نريد.

حدَّق عصام في عينيها الدامعتين غير مصدِّق ما يسمع ولا يجد ما يقول، أدار وجهه لينزل سلم العمارة تعتلي وجهه ملامح الصدمة والحزن ممتزجًا بالغضب، خرج من باب العمارة وقد أخذته قدماه إلى منزله ليقف أمام باب شقته، دقَّ جرس الباب ففتح له (عمر) الذي ألقى بنفسه في

أحضان والده ليحتضنه عصام بشدة ويبكي بكاءً شديدًا، لم يبكِ عصام طوال حياته كما يبكي الآن في أحضان نجله، وما إن سمعته أمه حتى خرجت من إحدى الغرف مهرولةً إليه ليحتضنها ويقبِّلها وهو ما زال يبكي، دلف إلى شقته برفقة والدته ونجله عمر، ينظر إلى النتيجة المعلَّقة على الحائط فإذا بتاريخ اليوم هو الثلاثاء ١ يناير – ٢٠٠٢.

ثم نظر لساعة الحائط فإذا هي الواحدة وعشر دقائق، جلس برفقة والدته وعمر فسأله:

- متى تزوَّجت أمك؟

نظر إليه عمر وأمه باندهاش متسائلين في نفس الوقت:

- كيف عرفت؟

أحاب مفسرًا:

_خرجت من باب الكهف فوجدت نفسي أمام مكتب المحاماه الذي كنت أعمل به ورأيتها برفقة رجل لا أعرفه، وعندما رأتني أعلمتني أنها سئِمت من انتظاري، متى حدث هذا؟

لتجيبه والدته :

- بعد أن غادرت آخر مرة بنحو عامٍ قرَّرت وفاء أن تعمل لتساعدنا على أعباء الحياة، فذهبت إلى مكتب المحاماه الذي كنت تعمل به وطلبت من صاحبه أن يجد لها عملًا، وبالفعل عملت بالمكتب وبعد عدة شهور من عملها باتت أكثر عصبيةً وانفعالًا، وكانت تتأخَّر عن مواعيد عودتها من العمل باستمرار، وفي أحد الأيام تأخَّرت كثيرًا فذهب عمر للسؤال عنها بالمكتب ليعلموه أنها انصرفت في موعدها المحدَّد منذُ ثلاث ساعات تقريبًا، فعاد عمر إلى المنزل وظل في انتظارها حتى عادت بعد حوالي نصف ساعة إثر عودته، لنسألها عن سبب تأخُّرها فانفعلت وازدادت عصبيتها وعلا صوتها، ما أدَّى بي إلى أن انفعلت وارتفع صوتي لأوضح لها أنَّ أسلوبها في الحديث لا يليق وهي تتحدث مع خالتها وأم زوجها بهذه الطريقة، ظللنا لا نتحدث معًا عدة أيام حتى قام عمر بمصالحتنا وتهدئة الأجواء بيننا، لم تعُد تتأخَّر في العمل كعادتها وانتظمت الحياة لشهرين أو ثلاثة ثم فُوجئت بعمر يأتي من مدرسته غاضبًا ليخبرني أنَّ وفاء قابلته بعد خروجه من المدرسة وأخبرته أنها ستغادر المنزل وتستأجر شقةً مستقلةً لها ولعمر, ليخبرها عمر أنه لن يتركني بمفردي وسيبقى معي للأبد، ثم جاءت للمنزل بعدها بحوالي أسبوع أعدَّت حقائبها وغادرت بعد أن حاولت وعمر جاهدين أن نُثنيها عن المغادرة، لكنها لم

تستمع إلينا وغادرت، بعد مرور ثلاثة أشهر ذهبت إلى عمر المدرسة برفقة ذاك الرجل، وأخبرت عمر أنها حصلت على حُكم قضائي باستخراج شهادة وفاتك ثم تزوَّجت من زميل لها في المكتب وطلبت من عمر مرافقتها ليعيش معهما، فرفض عمر، ومنذُ ذلك الحين وهي تذهب لعمر المدرسة كل شهرين أو ثلاثة لتتحدث معه قليلًا ثم تغادر.

نظر عصام بملامح متجهمة إلى الساعة المعلَّقة أمامه على الحائط يتابع حركة عقاربها، ويتمنى أن تأتي الساعة السابعة سريعًا حتى يعود للكهف مرة أخرى فيمكث فيه حتى يموت، حيثُ إنَّه فقد رغبته في الحياة، فها هي وفاء (حب حياته) تعيش في أحضان رجل آخر منذُ سنوات وسعَت جاهدةً أن تثبت موته باستخراج شهادة وفاته، لا يعلم ماذا يخبئ له القدَر، هل سيعود في المرة القادمة ليجد عمر قد طرد جدته من المنزل ليعيش فيه مع زوجته؟ فهو الآن بلا أب وبلا أم وتقوم جدته بدور الأم والأب معًا، هل تستطيع؟

نهضت والدته قائلة: هوِّن عليك يا بُني، فقد اعتدنا الحياة بدونها، أعيش مع عمر منذُ ست سنوات ولا ينقصنا شيء إلا وجودك بجوارنا.

حدَّق عصام في أمه بملامح يسودها الحزن ولا ينطق بكلمة، قال له عمر:

- يا أبي، أنا الآن في السنة النهائية بكلية التجارة وسأتخرَّج بمشيئة الله صيف هذا العام، لا تقلق يا أبي فأنا رجل وقدر المسؤولية كما طلبت مني في المرة السابقة، لن أخذلك يا أبي، ثِق بي.

ابتسم عصام لعمر محتضنًا ذراعه وقبَّل رأسه، ثم قالت أمه:

- سأذهب لأعد لك الطعام.

نهض عصام من على الأريكة قائلًا لهما:

- سأذهب لغرفتي لأنال قسطًا من الراحة، أيقظوني عندما ينتهي الطعام.

دخل عصام إلى غرفته وينظر في مرآته ليلحظ تغيُّر قسمات وجهه وقد بدأ الشعر الأبيض يزداد في رأسه فهو الآن في الثانية والأربعين من عمره، ألقى بنفسه على سريره ليغمض عينيه الدامعتين ولم يشعر بنفسه إلا وأمه توقظه لتناول الطعام، انتفض من سريره يلتفت حوله ليتأكَّد أنه ما زال في منزله ولم يعد بعدُ إلى ظلمة الكهف ويحاول أن يعي ما حدث، هل تركته وفاء بالفعل وتزوَّجت غيره؟ ليبدأ وعيه في إدراك أنه يعيش واقعًا أليمًا وليس كابوسًا استيقظ منه لتوِّه.

أمسكت أمه بيده لتهوِّن عليه، ثم نهض برفقتها وهو ينظر للمنبه الموجود بجوار سريره فوجد أنَّ الساعة أصبحت الرابعة مساءً, خرج عصام برفقة والدته من غرفته إلى الصالة وقد أعدَّت له الطعام ليجد عمر

جالسًا على المائدة وبجواه (منى) وقد تغيَّرت ملامحها، ولكنها ما زالت تحتفظ بجمالها، ابتسم لها عمر ونهضت منى لمصافحته مبتسمةً قائلة:

- حمدًا لله على سلامتك.

نظر لها عصام مبتسمًا وقال لها:

- كيف حالكِ يا منى؟ افتقدتك كثيرًا، هل ما زلتِ تسكنين بالدور العلوي؟ هل تزوَّجتِ ولديكِ أبناء؟

نظرت له منى مبتسمةً وقالت:

- لا، لم أتزوج، ما زالت أعيش مع أمي وأبي.

- ولماذا لم تتزوجي؟

- لم يأتِ النصيب بعد.

جلس عصام على المائدة لتناول الطعام مع عائلته ليسود الصمت, فلا أحد يتحدث حتى تفتتح منى الحديث بقولها:

- أتعلم يا عصام؟ أريد أن أذهب معك إلى هذا الكهف.

نظر إليها عصام باسمًا:

- ولماذا تذهبين؟ فأنا أذهب ثم أعود لأحكي لكم ما حدث، هل تعتقدين أنَّ الأمر سهلًا؟ غاب عني أهلي أربعة أيام فقط وغبت أنا عنهم واحد وعشرين عامًا، ذهبت ولا يزال عمر جنينًا في أحشاء أمه ثم رأيته للمرة الأولى وعمره سبع سنوات ثم رأيته للمرة الثانية وهو في الرابعة عشر، وهذه هي الثالثة أعود لأجد وفاء قد تزوَّجت غيري.

ساد الصمت قليلًا لترد منى:

- وفاء لم تخطئ يا عصام.

نظروا إليها متعجبين ممَّا تقول ثم أردفت قائلة:

- نعم، لم تخطئ، أنت لن تشعر يومًا بما شعرت به ولو كنت مكانها لتزوَّجت بعد شهر واحد من غيابها وليس بعد خمسة عشر عامًا.

نهض عصام ويترك المائدة ليتجه ويجلس في شُرفة المنزل لتنظر أم عصام إلى منى نظرة لوم وغضب مما قالت، نهضت منى وجلست بجوار عصام في الشُّرفة قائلة:

- هذا رأيي يا عصام، وتعوَّدت أن أصارحك.

- لا، ليس حقها فهي خاطئة، كان الواجب أن تنتظر حتى أعود لتصارحني أنها لا تطيق العيش معي، وكنت سأطلِّقها على الفور فأنا لا أعيش مع امرأة لا ترغب في العيش معي.

- وهل كانت تعلم متى ستعود؟

صمت عصام ولا يعرف ماذا يقول، ثم أتت والدته حاملةً صينية الشاي لتجلس بجوارهم وتبعها عمر ليجلسوا جميعًا في شُرفة المنزل، فقالت والدته:

- هذا الأمر مرَّ عليه وقت طويل ولا نريد أن نتحدث به مرة أخرى.

ونظرت لعصام قائلة: أنت الآن مع أمك وابنك ومنى التي هي أخت لك وصديقة، أنت تجلس مع أحبابك فلا تفكر في مَن تركك.

التفت عمر لأبيه قائلًا:

- يا أبي، لماذا لا نفكر في حل لما يحدث؟ لماذا نجلس ونتحدث عمَّا فات؟ لمَ لا نحاول أن نغيِّر ما هو قادم؟

- كيف؟

- نذهب إلى الكهف الآن لنرى ماذا هناك، وهل سيوجد أي اختلاف؟ فأنت لم تذهب إلى الكهف إلا من خلال الوميض الأبيض الذي ينقلك إلى داخل حجرات الكهف المتعاقبة، ولكن لم تفكر أبدًا في الذهاب إليه أثناء تواجدك خارجه، ذهبت أنا إلى تلك المنطقة عدة مرات لأبحث عنك فلم أجد أثرًا لأي كهف، لنذهب ونرَ.

نظرت جدته إليه قائلةً بغضب:

- هذه فكرة سيئة، اجلس معنا يا عصام فأنا لا أراك إلا كل سبع سنوات عدة ساعات، لا تذهب أرجوك.

تأمَّل عصام وجه والدته ثم حدَّث عمر قائلًا:

- فكرة صائبة يا بُني، ولكن سأذهب بمفردي لن يأتي معى أحد.
- دعني أذهب معك يا أبي، وأعدَك أنني سأفعل ما تأمرني به.
- لا يا عمر، سأذهب بمفردي.

نهض عصام ليذهب إلى غرفته كي يبدِّل ملابسه، فتبعته أمه متوسلةً إليه ألَّا يفعل، نظر عصام لأمه قائلًا:

- يا أمي، عمر مُحِق يجب أن أحاول تغيير ما يحدث، فلن أخسر شيئًا أكثر ممَّا خسرت.

وقفت أمه ناظرةً إليه والدموع تملأ عينيها بعد أن عجزت عن إقناعه بما تريد، انتهى عصام من تبديل ملابسه ليخرج في اتجاه الباب، لتمسك أمه بيده قائلة:

- ابقَ معي قليلًا لا تذهب الآن، أريد أن أحدِّثك في أمر مهم.

نظر عصام إلى ساعة الحائط فإذا هي السادسة مساءً، ثم أمسك بيد والدته وقبَّلها قائلًا:

- ليس لديَّ الكثير من الوقت يا أمي يجب أن أذهب.

تحرَّك عصام ليحتضن عمر ويقبِّله ويصافح منى مُبتسمًا ليعود لأمه فتحتضنه بشدة وهي منهمرة في البكاء، قبَّل عصام جبين أمه، ثم فتح الباب وانطلق خارجًا في طريقه إلى الجبل مرة أخرى.

سار عصام مُترجلًا في طريق الجبل ليصل إلى قمته ونظر باتجاه الكهف ليجده في مكانه، تحرَّك باتجاه الكهف ولكن كلما اقترب لاحظ أمرًا عجيبًا:

- أين ذهبت بوابة الكهف؟

الكهف أمام ناظريه بالفعل، ولكن أُغلِقت بوابته بحجر عملاق، اقترب عصام باحثًا عن خيمة الشيخ التي كانت توجد بجوار الكهف، فلم يجد لها أثرًا.

جلس عصام على بوابة الكهف ليخاطب عقله قائلًا:

- ليتني جلست بجوار أمي وابني ولم آتِ إلى هنا، فما أنا فيه هو قدر ومصير لن يتغيَّر، ثم جلس أمام الكهف متذكِّرًا زوجته وفاء وما فعلت به ونظرات أمه له وهي تودِّعه، وما هي إلا دقائق ليُومض الضوء الأبيض فوجد عصام نفسه داخل غرفة جديدة من غرف الكهف وأمامه الباب (الرابع).

فتح عصام البوابة فإذ به أمام باب للعناية المركزة في أحد المستشفيات، وبجوار الباب لوح زجاجي يستطيع من خلاله رؤية مَن بالغرفة، ليرى عصام والدته ترقد أمامه على أحد الأَسِرَّة غائبةً عن الوعي مُحاطةً بالأجهزة الطبية وأنابيب الأكسجين والمحاليل التي تخترق ذراعها، فتح عصام باب الغرفة ليدخل ناظرًا إلى والدته والتي يبدو على وجهها أنها آخر لحظاتها في هذه الدنيا، جلس عمر بجوارها وأمسك بيدها ليقبِّلها وينظر إليها قائلًا:

- يا أمي، افتحي عينيكِ لحظةً واحدةً وانظري إليَّ لتطمئني أني عدتُ مرة أخرى، ليتني استجبت لتوسُّلاتكِ في المرة السابقة ولم أغادر قبل موعدي, أفنيتِ نصف عمركِ في تربيتي وتعليمي وإنشائي وأفنيتِ النصف الآخر في انتظاري دون جدوى، لم أقُل لكِ كلمة شكر مرة واحدة، كم تمنيت أن أجلس تحت قدميكِ لأرد لكِ جزءًا بسيطًا ممَّا قدَّمتِه، كنتِ لابني الأب والأم وتحملتِ مسؤوليته وحدكِ ولم أكُن بجواركِ، كم تمنَّيت أن أقبِّل رأسكِ ويديكِ عرفانًا مني بعطائكِ الذي لم ينتهِ، افتحي عينيكِ يا أمي أرجوكِ، أنا هنا بجواركِ ممسكًا بيدكِ، هل تشعرين بوجودي؟ افتحي عينيكِ يا أمي، أريد أن أسمع اسمي بصوتكِ مرة واحدة، لا تذهبي قبل أن تطمئني أني بجواركِ.

ثم أطلقت أحد الأجهزة الطبية صافرةً طويلةً ليفتح باب الغرفة وتهرع إليها بعض الممرضات تنظرن إلى عصام بانفعال متسائلات:

- كيف دخلت إلى هنا؟ الزيارة ممنوعة.

وما هي إلا لحظات حتى دخل أحد الأطباء وأمر بإخراجه خارج الغرفة، ظلّ يتابع ما يحدث خلف اللوح الزجاجي وهم يحضرون أحد الأجهزة ويحاولون جاهدين إنعاشها بصدمات كهربائية...ولكن.. دون جدوى.

ماتت أمي دون أن تطمئن أني قد عدتُ إليها وجلست بجوارها، لم تشعر بلمسة يدي، ولم تسمع ما قلته لها، آخر ما قالته لي:

- ابقَ قليلًا، أريد أن أحدِّثك في أمرٍ مهم، لم يكن هناك أي أمر مهم، بل كانت تريدني فقط أن أبقى بجوارها دقائق معدودة قبل أن أغادر.

جلس عصام منهمرًا بالبكاء على الأرض بجوار باب الغرفة فخرج الطبيب لمواساته، وما هي إلا دقائق ليسمع صوت خطوات في طرقة المستشفى المؤدية إلى الغرفة، فإذا هو عمر وبجواره امرأة تحمل طفلًا رضيعًا، وها هي (وفاء) تمشي خلفهم وتنظر إليَّ بعينين دامعتين.

اقترب عمر من والده ليأخذه بين ذراعه؛ فهو كالطفل الذي لا يعرف ماذا يفعل وكيف تُدار مثل هذه الأمور، ثم نظر إليَّه قائلا:

- يا أبي، كنت دومًا أمامها، وطالما حدَّثتك، وكانت دائمة الدعاء لك، اطمئن يا أبي فهي الآن بين يدي خالقها ليطمئن قلبها، انظر يا أبي.. هذه زوجتي (إيناس) تحمل على ذراعها ابني عصام (حفيدك).

ثم أمسك عمر بيد والده لينهض واقفًا وساعده في بدء إجراءات الغُسل واستخراج تصريح الدفن وغيرها من الإجراءات المتبعة في مثل هذه الأوقات، أنهى عمر استخراج تصريح الدفن بينما نُقِل جُثمان جدته إلى

غرفة الغُسل بالمستشفى، أمسك عصام تصريح الدفن ناظرًا فيه وقد كُتِب فيه تاريخ الوفاة:

الخميس ١- يناير – ٢٠٠٩

أخرج عمر من جيبه هاتفه الجوال ليلامس شاشته؛ كي يتحدَّث من خلاله مع بعض الأشخاص وسط نظرات عصام المستغربة من هذا التطوُّر المذهل، أصبح الهاتف متنقلًا مع جميع الأشخاص.

أخرج جثمان أم عصام ليُنقَل إلى إحدى سيارات الإسعاف، ركب عصام بجوارها واستقل عمر سيارته الخاصة برفقة زوجته وأمه ذاهبين إلى مسجد مجاور للمنزل ليؤدُّوا صلاة العصر ثم صلاة الجنازة، ومن ثَمَّ إلى المقابر وكانت في إحدى قرى محافظة الفيوم.

وقف عصام وعمر وبعض أقاربهم ليتلقُّوا العزاء، بينما أحاطت بعصام بين الحين والآخر نظرات التعجُّب من بعض أقاربه، فبالتأكيد وصل إلى مسامعهم قصة الكهف وما يحدث له منذُ سنوات.

وما إن انتهى العزاء وانصرف الناس حتى جلس عصام بجوار قبر والدته يغمر الحزن ملامحه، ليمد عمر يده إليه حتى ينهض فنظر إليه عصام متسائلًا:

- ما الذي أتى بأمك اليوم؟

- عادت أمي منذُ حوالي ثلاث سنوات نادمةً على ما فعلت وقد سامحتها جدتي رحمها الله وسمحت لها بالبقاء معنا في المنزل، كانت هي مَن ترعى جدتي عندما اشتدَّ بها المرض وتتابع مواعيد دوائها وتعتني بها ولم تقصِّر في حقها أبدًا، وكانت تتمنى رؤياك دومًا لتطلب منك العفو والسماح.

ألقى عصام نظرةً في ساعة يده ثم وجَّه بصره لعمر قائلًا:

- خُذ أمك وزوجتك واذهبوا إلى المنزل، فلم يتبقَّ الكثير من الوقت، أريد أن أبقى بجوار أمي حتى يأتي الوميض.

- لا يا أبي، سنبقى بجوارك.
- ما اسم زوجتك؟
- إيناس.

أشار لها عصام لتأتي إليه فصافحها وقبَّل جبينها وقبَّل حفيده (عصام الصغير) ثم استند بظهره على قبر والدته ليغمر الضوء الأبيض أرجاء المكان، وإذ به يجد نفسه جالسًا في غرفة الكهف المظلمة مستندًا إلى إحدى حوائط الغرفة الصخرية، ظلَّ عصام جالسًا وسط الظلام، فهو

لا يريد أن يخرج هذه المرة، وضع حقيبته تحت رأسه ليفترش الأرض ويغمض عينيه محاولًا النوم.

افترش عصام أرضية الغرفة الحجرية وهو مستلقٍ على ظهره وعلى يمينه الباب الحجري (الخامس) وعلى يساره الباب (الرابع) مغلقًا ولا يمكن فتحه مرة أخرى بالطبع، وخلفه وأمامه الحوائط الحجرية المنحوتة ببعض الكلمات الفرعونية والأحرف غير المعلومة.

لحظات قليلة ونمى إلى آذان عصام صوت وكأنه صوت خطوات تتقدَّم نحوه ببُطء، أنصت لحظات ليتأكَّد مما يسمع.. نعم.. خطوات تقترب نحوه ببُطء، انتفض عصام ليمسك حقيبته متوترًا محاولًا فتحها لإخراج كشافه المضيء، إلا أنه تفاجأ بممر ضيق أمامه، وقد تقدَّم نحوه شخص بخطوات متزنة ممسكًا بيده (مشكاة) مضيئة، وقف عصام متجمد الجسد أمام ما يراه وحاول تدقيق النظر في وجه ذاك الرجل، شعر أنَّه رآه من قبل.. نعم هو... هو ذاك الشيخ ذو اللحية البيضاء، صاحب الخيمة المجاورة للكهف، اقترب الشيخ ممسكًا بمشكاته المضيئة، وتسمَّر عصام صامتًا مترقبًا، ليقف الشيخ أمامه فبادره عصام قائلًا:

- جئتَ لإنقاذي، أليس كذلك؟

- لا، لم آتِ لإنقاذك، بل جئت لأخبرك بما أعلم، هذا الكهف هو (كهف الأبواب السبع)، به سبعة أبواب حجرية كل باب ينتقل بك للمستقبل سبع سنوات لتمكث خارج الكهف سبع ساعات، ثم تعود لتدخل الباب الذي يليه ثم الذي يليه حتى تصل للباب السابع، ماذا بعد الباب السابع؟ لا أعلم.

هذا الكهف سر من أسرار الرقم (٧).

أيام الاسبوع (٧).

تقوم القيامة يوم جمعة، وهو اليوم الـ (٧) من الأسبوع.

الطواف حول الكعبة (٧).

السعي بين الصفا والمروة (٧).

عدد الجمرات (٧).

نُؤمَر بالصلاة عند (٧) سنوات.

عدد آيات فاتحة الكتاب (٧) وأسماها الله (السبع المثاني).

عدد كلمات التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله (٧)،

رأى الملك في رؤياه التي قصَّها على نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾[يوسف:٤٦]

عدد السموات (٧)

عدد الأرضين (٧)

أبواب الجحيم (٧)

وفي دُنيانا نجد....

حواس الإنسان (٧)

ألوان الطيف (٧)

معادن الأرض (٧)

عدد البحار (٧)

عدد القارات (٧)

لا يكتمل نمو الجنين في بطن أمه إلا في الشهر الـ(٧).

وغير ذلك الكثير الذي لا أعلمه، فسِرُّ هذا الرقم لن يظهر إلا بعد قيام الساعة، وهذا الكهف سر من أسراره، ونصيحتي لك أن ترضى بقضاء الله وتصبر عليه.

وقف عصام أمام الشيخ متعجبًا ممَّا قاله، ثم قال له:

- هل لي أن أسأل سؤالًا ؟

- نعم، سؤال واحد.

- هل دخل شخص غيري إلى هذا الكهف من قبل؟

نظر إليه الشيخ باسمًا:

- كل مَن يعيش على هذه الأرض هو بالفعل داخل الكهف.

ثم بدأ ضوء المشكاة التي أمسك بها الشيخ في الخفوت؛ حتى انطفأ تمامًا، ليُخرِجَ عصام كشافه المضيء من حقيبته باحثًا عن الشيخ في الغرفة، ولكن بلا جدوى.

وقف عصام متعجبًا ومفكرًا فيما قال الشيخ ليسأل نفسه: لماذا لم يخبره الشيخ بما يعلمه قبل دخوله للكهف؟ أجاب عصام على سؤاله سريعًا بأنه كان داخلًا إلى الكهف تحت أي ظروف ومهما سمع من تحذير، فلم يكن ليُثنيه ذلك عن خوض تجربته، ثم جلس عصام على أرض الغرفة

مرة أخرى، فهو لا يريد الخروج، فلمَن يخرج؟ وقد ماتت أمه وعادت وفاء للمنزل لتعيش مع عمر وزوجته، فهو لا يريد تلك المواجهة التي تجمعه بوفاء مرة أخرى.

جلس عصام يفكر فيما مرَّ به من أحداث ويفكر في حياته التي مرَّت في ساعات معدودة، كلمات الشيخ وسر الرقم (٧) حتى شعر ببعض الاختناق وضيق التنفس؛ حيثُ إنَّ الغرفة الحجرية مغلقة تمامًا ولا يوجد بها أي منفذ لدخول الهواء، وقف عصام وأمسك بالمقبض الخشبي وأدار الباب الحجري ليجد نفسه واقفًا بأحد الشوارع بالمدينة وقد ازداد الزحام وازدادت الإضاءة الناتجة عن كثرة المحال التجارية والدعايا المضيئة المعلَّقة على الحوائط وأعمدة الإنارة، وازداد التلوث والغبار الناتج عن زيادة أعداد البشر وعوادم السيارات.

جلس عصام على أحد الأرصفة بالشارع يتابع حركة الناس وتلك الهواتف الجوالة التي يمسكون بها وكأنها جزء لا يتجزأ من أيديهم ويتابع السيارات الحديثة المسرعة أمامه، فهو لا يريد الذهاب للمنزل، افترش الرصيف ووضع حقيبته تحت رأسه ليستغرق في النوم لساعات، استيقظ عصام من نومه ليجد بيده بعض العُملات المعدنية والورقية وبجواره علبة بلاستيكية بها بعض الأطعمة، لم يتعجب عصام فهو يبدو كسائل بلا مأوى يفترش الرصيف، نظر إلى ساعة يده فإذا هي الرابعة "عصرًا".

سُرعان ما نهض عصام ليُشير إلى إحدى سيارات الأجرة (تاكسي)، ذهب إلى قريته حيثُ مقابر العائلة ليزور قبر والدته، وما إن وصل عصام إلى قريته حتى نزل من السيارة واتجه للمقابر مترجلًا ليجلس بجوار قبر والدته يتحدَّث إليها ويقصُّ لها ما قاله له الشيخ بغرفة الكهف، تحدَّث إليها قليلًا وصمت وبكى قليلًا، لم يشعر عصام بتلك السنوات التي مرَّت به، فما زالت روحه تشعر أنه ذاك الفتى في العشرين من عمره، نعم، يعلم أنه الآن في عامه السادس والخمسين إلا أنَّ تلك السنوات مرَّت به في خمسة أيام فقط، فلم يشعر بمرور كل تلك السنين وها هو يجلس بجوار قبر والدته يُحدِّثها باكيًا كالطفل الصغير.

شعر عصام بخطوات تقترب منه لينظر تجاهها، فرأى نجله عمر يتقدَّم نحوه ببُطء، ثم أسرعت خطواته إليه ليجلس بجواره ويحتضنه باكيًا فقال:

- علِمت أنك هُنا عندما لم تأتِ.

وضع عصام يده على كتف عمر وقال:

- أعتذر منك يا بُني فكنت أرغب بالحديث إلى أمي، كيف حالك وزوجتك وأمك؟ وكيف حال عصام الصغير، أشتاق إليه كثيرًا.

- هو أيضًا يا أبي يشتاق إليك، فقد حدَّثته عنك كثيرًا.

- وكيف حال وفاء؟
- بخير يا أبي، هي أيضًا تشتاق لرؤيتك.
- نعم بالطبع، تشتاق لرجل ميت استخرجت له شهادة وفاة.
- هي ندمت على ما فعلت وتعلم أنها أخطأت وتريد أن تتحدث إليك، هيا بنا إلى المنزل لنجلس ونتحدَّث معًا.

نظر عصام إلى ساعة يده ثم نظر لعمر قائلًا:

- لم يتبقَّ الكثير من الوقت، دقائق ثم يأتي الضوء ليأخذني للكهف، لا تقلق فور عودتي إلى الكهف سأفتح الباب الحجري وأعود إليكم بعد دقائق... أقصد بعد سبع سنوات.. اليوم هو أول يناير ٢٠١٦, أليس كذلك؟
- بلى يا أبي.

جلس عمر بجوار والده ممسكًا بيده مستندًا بظهره إلى قبر جدته لا يتحدث أي منهم، بل ينظرون أمامهم فقط، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تضيء الأجواء بالضوء الأبيض ليجد عصام نفسه داخل غرفة الكهف، لم ينتظر عصام كثيرًا ليمسك بالمقبض الخشبي ليدير الباب الحجري،

وجد عصام نفسه مرة أخرى أمام قبر والدته وقد بدَت على المكان آثار مرور السنين، يبدو أنَّ عمر لا يزور جدته كثيرًا.

ألقى عصام السلام على والدته وحدَّثها قليلًا أنه ما زال بخير وأخبرها أنه ذاهب لعمر ليوبِّخه على عدم مجيئه إليها كثيرًا، مشى عصام مترجلًا سائلًا عن مكان موقف السيارات ليستقل إحدى سيارات الأجرة ذاهبًا إلى المدينة ليتجه إلى منزله، وجد عمر وزوجته جالسين بشُرفة المنزل في انتظاره، نهض عمر باتجاه باب الشقة ليلتقي بوالده على سلم المنزل، وما إن وجده أمامه حتى احتضنه وأخذ بيده إلى الشقة.

دخل عصام إلى شقته وقد تغيَّرت معالمها تمامًا من أثاث وسجاد وألوان الحوائط وغيرها، ليرى إيناس زوجة عمر وبجوارها فتاة يبدو أنها في السابعة من عمرها وطفل آخر قد يبلغ عمره ثلاث سنوات، ثم فتح باب إحدى الغرف ليخرج عصام الصغير الذي لم يصبح صغيرًا، بل أصبح في الرابعة عشر من عمره ليتجه إلى جده بخطوات مسرعة محتضنًا إياه قائلًا:

- جدي، كم تمنيت رؤيتك!

قبَّل عصام حفيده على جبينه ثم جثا على ركبتيه ليحتضن أحفاده الصغار ليقول عمر :

- هذه سلمى في السادسة من عمرها، وهذا أحمد في الثالثة من عمره.

قبَّلهم عصام ثم نظر إلى عمر متسائلًا:

- هل وفاء هنا؟

نظر عصام إلى زوجة عمر نظرةً حائرةً وكأنه لا يعرف ماذا يقول، لتبادله نفس النظرة، ثم جلس عمر على الأرض بجوار والده قائلًا:

- أبي، لقد تُوفِّيت أمي منذُ ثلاثة أعوام.

ثم وضع يده على كتف أبيه وتابع قائلًا:

- هوِّن عليك يا أبي.

فقاطعه عصام مشيرًا إليه بيده أن يصمت ثم قال:

- أسأل الله أن يرحمها ويغفر لها، اعلم يا بُني أني قد اقتنعت أنها لم تخطئ، وإن كانت قد أخطأت فإني أشهد الله أني سامحتها.

ثم أمسك عصام بيد عمر لينهض واقفًا، ثم اقترب من إيناس زوجة عمر ليقبِّل رأسها ثم أمسك بيد أحفاده متجهًا لشُرفة المنزل، إذ بصوت يناديه من خلفه:

- يا عصام، حمدًا لله على سلامتك.

التفت إلى الصوت فإذا هي (منى)، ابتسم لها ملاحظًا تغيُّر ملامح وجهها، فقد أصبحت في الثامنة والخمسين من عمرها، أمسك عصام بيدها لتنظر معه في مرآة بجوار باب الشقة، تأمَّل عصام ملامحه وقد اشتعل رأسه شيبًا وبدَت التجاعيد ظاهرةً وهي تنحت قسمات وجهه، فقال:

- انظري يا منى، كل هذا حدث فقط في ستة أيام.

رمقته منى بنظرة ساخرة وقالت:

- أنت كبرت، أمَّا أنا فما زلتُ أحتفظ بشبابي.

ثم تابعت قائلة:

- لا تكُن كئيبًا يا عصام وتعالَ لنجلس ونتحدث معًا ونلعب مع أحفادك، ولكن قبل ذلك اذهب لتغتسل وتبدِّل ملابسك فرائحتك لا تُطاق.

ضحك عصام وضحكوا جميعًا وذهب عصام مسرعًا لدورة المياه مُشيرًا بيده لعمر قائلًا:

- أحضِر لي ملابس نظيفة.

ثم نظر لمنى وقال:

- سأغتسل وأخرج لأثبت لكم أنها رائحتكِ أنتِ وليست رائحتي.

فضحكت منى وضحك الجميع.

جلس عصام على الأريكة وجلس عمر وعصام الصغير إلى جواره بينما أحمد وسلمى يجلسان على الأرض منشغلين بإحدى الألعاب ومنى وإيناس بالمطبخ لتحضير الطعام, حاول عصام متابعة ما فاته من أحداث عبر متابعة وكالات الأنباء من خلال التلفاز، ثم نهض ليتفحَّص شاشة التلفاز المسطَّحة، فهي تختلف كثيرًا عن أجهزة التلفاز القديمة، ثم التفت إلى عمر موجِّهًا إليه حديثه ليسأله:

- ماذا تعمل يا بُني؟
- أعمل محاسبًا بأحد البنوك، وأتقاضى ما يكفيني ويزيد ولله الحمد.

ابتسم له عصام ثم التفت إلى عصام الصغير متسائلًا:

- ما هذا الجهاز الذي تمسكه بيدك؟

- هذا هاتف جوال يا جدي؛ لإجراء المكالمات، كما أنه يتصل بشبكة الإنترنت وتستطيع التحدث مع أي شخص في العالم من خلاله ومتابعة أخبار ما يحدث في العالم من خلاله.

أمسك عصام بالهاتف يتفقَّده متعجبًا ومندهشًا ممَّا وصل إليه العلم، ثم سأله:

- وما هو الإنترنت؟

فأخذ حفيده يشرح له ويحدِّثه عمَّا وصل إليه العلم الحديث في هذا العصر، ثم نظر عصام لعمر وقال:

- أريد هاتفًا جوالًا يا عمر.

نظر له عمر ضاحكًا وقال:

- أحضرت لك هاتفًا بالفعل.

وسُرعان ما نهض متجهًا إلى غرفته، ليخرج ومعه علبة كرتونية فتحها وأخرج الهاتف وقام بتشغيله وضبط الوقت وتاريخ اليوم الأحد ١- يناير - ٢٠٢٣ ثم أعطى الهاتف لأبيه، أمسك عصام هاتفه الجوال الجديد مبتسمًا يحاول تفقُّد ما أخبره به حفيده، ثم نظر عصام إلى حفيده متسائلًا:

- أين أخبار العالم؟ وأين الإنترنت؟

أمسك الحفيد بالهاتف واتصل بالشبكة، ثم نظر لجده قائلًا:

- سأنشئ لك حسابًا على فيسبوك.

لم يفهم عصام ما قال، فأشار له برأسه أن افعل كل شيء، التقط الحفيد صورةً لجده وأنشأ له حسابًا على فيس بوك وأعلمه كيفية استخدام الهاتف وبرامجه واستخدام الكاميرا ليلتقطوا معًا العديد من الصور (السيلفي)، أخذ يلتقط صورًا لعمر ولأحفاده وظلَّ منهمكًا في تفقُّد الهاتف الجديد، وما هي إلا لحظات حتى خرجت منى وإيناس من المطبخ لوضع الطعام على المائدة، جلسوا جميعًا حول المائدة لتناول الطعام، بينما جلس عصام منشغلًا بهاتفه نظرت منى له قائلة:

- يا عمر، يبدو أن والدك منشغلًا بإرسال طلبات الصداقة للفتيات.

ضحكوا جميعًا إلا عصام، فهو منشغل بالهاتف, وما إن انتبه إلى ضحكاتهم حتى نظر إليهم مندهشًا، متسائلًا:

- لماذا تضحكون؟

قالت له منى: اترك الهاتف وتعالَ لتأكل.

نهض عصام تاركًا هاتفه على الأريكة ليجلسوا جميعًا حول المائدة يأكلون ويتسامرون ويضحكون.

بعد انتهائهم من الطعام ذهب عصام ليجلس وحيدًا في شُرفة المنزل ناظرًا إلى تلك المنطقة الجبلية، ثم أتت منى لتجلس بجواره بعد أن وضعت كوبًا من الشاي أمامه لتمسك منى بيده وتنظر في عينيه وقد امتلأت بالدموع فقالت متسائلة:

- لماذا هذه الدموع؟ أنت الآن بين أحبابك، نحن سعداء بوجودك وأنت سعيد بالتواجد معنا، حاول أن تشعر بهذه السعادة ولا تفكر فيما هو قادم، استمتع يا صديقي بهذه اللحظات السعيدة فقط, ولا تفكر في أي شيء آخر, انظر إلى عمر وإيناس كم هما سعيدان! انظر إلى أحفادك وهم يلعبون أمام عينيك، في هذا الزمن يا عصام يوجد الكثير من البشر يرجون من الله لحظةً واحدةً ينظرون فيها إلى أبنائهم أو زوجاتهم أو أحفادهم ولا يستطيعون، أنت تعيش أسعد لحظات حياتك فلا تضيّعها في البكاء.

أتى عمر وإيناس وعصام الصغير ليجلسوا بجوارهما في شُرفة المنزل ليتسامروا ويحكي كلٌّ منهم ملخصًا لما مرَّ به في السنوات الماضية.

نظر عصام لساعة الحائط فإذا هي تقترب من السابعة مساء, ساد الصمت وظلَّ الجميع ينظر للساعة من آنٍ لآخر، قلَّب عصام نظره بين وجوههم مخاطبًا عقله، هل سآتي في المرة المقبلة لأجدهم في انتظاري؟ أم سأجد أنَّ أحدهم قد فارق الدنيا؟ هل سأعود أنا إليهم؟ أم سأفارق الدنيا قبل عودتي؟ هل سأموت في هذا الكهف لأُدفَن في تلك الغرفة الحجرية وأتحوَّل إلى هيكل من العظام مُلقَى على تلك الأرض الرملية للكهف؟ ها هي عقارب الساعة تُشير إلى تمام السابعة مساءً، ليمسك عمر بيد والده وتتجه الأنظار جميعها إلى عصام في انتظار توهُّج الضوء الأبيض لاختطافه إلى الكهف مرة أخرى، مرَّت عقارب الساعة بانتظام لتتخطَّى السابعة والجميع في انتظار انبعاث الضوء، ولكن.. لم يأتِ الضوء بعد.

نظر عمر لساعة يده ظنًّا منه أنَّ ساعة الحائط لا تعمل بدقة، فوجد أنَّها بالفعل تخطَّت السابعة، سادت بينهم حالة من الصمت التام حيثُ لا يصل إلى مسامعهم إلا أصوات دقات عقارب الساعات، استمرَّت هذه الحالة من الصمت والترقُّب لدقائق تمر بهم وكأنَّها السنوات ثم نظر عصام الحفيد إلى ساعة هاتفه الجوال ليجدها تخطَّت السابعة وخمس دقائق، فانتفض عصام مُسرعًا إلى غرفة نومه ليأتي بساعة يده ناظرًا إلى عقاربها والتي تسير في اتجاه السابعة وعشر دقائق، ثم نظر إليهم وقد

سادت وجوههم علامات التعجُّب والدهشة والحيرة الممتزجة ببعض السعادة مع الحذر، الجميع جالسون يتابعون تحرُّك عقارب الساعات ومرور الثواني والدقائق، بينما عصام ما زال ممسكًا بساعة يده ناظرًا إليها متابعًا تقدُّم عقاربها، الساعة الآن السابعة وعشرون دقيقة، ماذا يحدث؟ هل انتهى الأمر؟!

نظر الجميع إلى بعضهم البعض، وقد احتلَّت ملامحهم علامات الدهشة والترقُّب، لتنهض منى وتتقدَّم بخطوات متزنة باتجاه المطبخ, بينما ظلَّ الآخرون في حالة ترقُّب، وما هي إلَّا ثوانٍ ويُفاجَأ الجميع بظلامٍ دامس يحيط بهم لتتجمَّد أجسادهم في أماكنها وكأنَّ على رؤوسهم الطير، فهم يخشون حتى النظر تجاه عصام، كان الجميع ينتظر الضوء المتوهج الذي لا تستطيع العيون تحمُّل النظر إليه، ليأتي ظلام دامس يملؤ الأرجاء, ما هي إلا لحظات وعاد النور مرة أخرى ليضيء المنزل، هرولوا جميعًا تجاه عصام في سعادة؛ لأنه ما زال بينهم, ثم خرجت وفاء من المطبخ وقالت ضاحكة:

- ماذا بكم؟ لقد أنزلت مفتاح الكهرباء العمومي ثم أعدتُ تشغيله.

نظر الجميع إليها في صمت، ثم سرعان ما علَت الضحكات بأرجاء المنزل، بينما بحث عصام عن أي آلة حادة ليضرب منى على رأسها؛ كي تتوقَّف عمَّا تفعله.

نظرت إليهم منى متسائلة:

- لماذا تنظرون إلى الساعات وتتابعون مرور الثواني والدقائق؟ ها هو عصام يقف بيننا، دعونا نتناسى الأمر ونعيش أوقاتنا بلا ترقُّب، بلا حذر، بلا خوف, جميعنا نعلم أننا سنموت، هل جلس أحد مرتديًا كفنه بجوار قبره منتظرًا الموت؟ لا، لم يحدث ولن يحدث، الجميع يعيش وكأنه يعيش أبدًا, دعونا لا ننتظر هذا الضوء اللعين ونعيش وكأنه لن يأتي مرة أخرى.

نظر عمر لوالده قائلًا:

- سأتصل بأحد زملائي في العمل لأحصل على إجازة بضعة أيام، سنذهب جميعًا في رحلة لزيارة معالم القاهرة.

مرَّ اليوم بصورة طبيعية وسط أجواء السعادة الممزوجة بالترقُّب، فما حدث لم يكُن ليتوقَّعه أحد.

صعدت منى لشقتها واتجه عصام لغرفته لينام، بينما جلس عمر لا يستطيع النوم، فمن حينٍ لآخر كان يذهب لغرفة والده ليطمئن أنه لا يزال نائمًا في سريره, ثم غلبه النعاس فذهب لغرفته ليأخذ قسطًا من الراحة.

صباح يوم الإثنين ٢- يناير – ٢٠٢٣

انتفض عمر من نومه في حوالي الساعة الثامنة صباحًا مهرولًا إلى غرفة أبيه ليفتح باب الغرفة فيجده ما زال نائمًا فتهدأ أنفاسه ويشعر بالطمأنينة أنه ما زال معهم ولم يخطفه الضوء، اتجه عمر إلى دورة المياه ليغتسل ثم بدأ في إيقاظ أسرته حتى يبدأوا رحلتهم لمعالم القاهرة ثم يرسل نجله ليُوقظ جارتهم منى لاصطحابها معهم، اتجه عمر لغرفة والده لإيقاظه فانتفض عصام من فراشه ينظر حوله وكأنه لا يصدِّق أنه ما زال نائمًا في فراشه ويوقظه نجله صباحًا بصورة طبيعية كباقي البشر, هدَّأ عمر من روع أبيه واحتضنه لتهدأ أنفاس عصام ثم نهض من فراشه، واجتمع بعائلته حول المائدة لتناول طعام الإفطار وسط أجواء يسودها التفاؤل والمرح، ثم نهض الجميع ليبدِّلوا ملابسهم ويبدؤوا رحلتهم، فتح عصام خزانة ملابسه حيثُ تكتسي ملابسه بالكثير من الأتربة ليختار ما يراه مناسبًا، نفض غباره وبدَّل ملابسه ثم خرج من غرفته وقد انتهى الجميع من تبديل ملابسهم ليغادروا شقتهم متجهين لسيارة عمر، لحقت بهم منى واستقلُّوا السيارة جميعًا في اتجاه القاهرة.

بدأت رحلتهم بزيارة الأهرامات ثم رحلة نيلية، تناولوا وجبة الغداء وفي نهاية اليوم توجَّهوا إلى أحد (المولات) التجارية ليشتري عمر بعض الملابس الجديدة لوالده وأسرته، نظر عصام إلى ساعة يده فإذا هي العاشرة

مساءً، لم يفكر كثيرًا فقد قرر أن يستمتع بأيامه مع عائلته دون أن ينتظر أي شيء.

انتهى اليوم بعودتهم إلى منزلهم بالفيوم الجديدة، صعدوا سلم المنزل وهم يمزحون ويضحكون ويذكرون بعض المواقف الطريفة التي مرَّت بهم خلال يومهم، ثم صعدت منى إلى شقتها ودخل عصام وعائلته إلى شقته، جلسوا وتسامروا قليلًا ثم اتجه كلٌّ منهم إلى غرفته.

الثلاثاء ٣- يناير – ٢٠٢٣

استيقظ عمر وايناس مبكرًا ليذهبا إلى عملهما؛ لتأكيد طلب الإجازة حيثُ إنَّ ايناس تُزامل زوجها في نفس البنك الذي يعمل فيه، ليبقى الأبناء بالمنزل نائمين حيثُ إنهم في فترة إجازة منتصف العام، استيقظ (عصام الصغير) من نومه ثم اتجه لغرفة جده ليوقظه لتناول طعام الإفطار وقد أعدَّته والدته وتركته لهم على المائدة، جلس عصام مع أحفاده يقصُّ لهم ما حدث منذُ أن قرَّر الذهاب للجبل باحثًا عن المغامرة حتى عاد إليهم في المرة الأخيرة.

ضرب جرس الباب لينهض عصام الحفيد لفتحه، فإذا هي (منى) تدخل لتُلقي السلام على عصام وأحفاده، ردَّ عصام السلام مبتسمًا، فجلست

بجواره على الأريكة تارةً يتسامرون وتارةً يلعبون مع الأحفاد أو يشاهدون فيلمًا أو مسلسلًا بالتلفاز.

مرَّت الساعات ليفتح باب شقتهم، دخل عمر وزوجته إيناس عائدين من العمل ليقترب عمر من والده ويخبره أنه حصل وزوجته على إجازة من العمل تبدأ من غدًا (الأربعاء -٤ - يناير) وحتى (الأحد- ٨- يناير) وأنهم سينطلقان غدًا في رحلة إلى مدينة شرم الشيخ، ثم نظر لمنى وقال:

- بالطبع السيدة منى ستكون معنا.

نظرت له منى قائلة: لا، اذهبوا أنتم؛ حتى لا أُثقِل عليكم.

- لقد حجزنا بالفعل وأنتِ معنا.

نهض عمر ليعد حقائبه وما يلزم للسفر، نظر عصام إلى منى ليسألها:

- لماذا لا تريدين أن تأتي؟
- ومَن أخبرك أني لا أريد أن آتي؟ لقد رقص قلبي فرحًا عندما علِمت أنَّ عمر حجز لي مكانًا في هذه الرحلة، ولكن يجب ألَّا أظهر له ذلك؛ حتى لا يظن أني متطفلة.

ردَّ عصام وقد علَت ضحكاته: تغيَّرتِ كثيرًا يا منى، تركتكِ وأنتِ حمَل وديع لأعود وأنتِ ثعلب مكار.

الأربعاء – ٤ يناير - ٢٠٢٣

جلس عمر بجوار إيناس زوجته وعصام بجوار منى، كما جلس الأحفاد بالمقاعد الخاصة بهم في الحافلة المتجهة إلى شرم الشيخ، سارت الحافلة في طريقها اقترابًا من الوصول لمدينة شرم الشيخ بينما يجلس عصام ناظرًا من نافذة الحافلة إلى تلك السلاسل الجبلية ذات الألوان المتداخلة والتي تصطفُّ على جانبي الطريق وكأنها تقف انتباهًا لاستقبال الضيوف، فما زال عصام عاشقًا للطبيعة الجبيلة رغم كل ما يُعانيه نتيجة هذا العشق, نظر عصام إلى منى سائلًا:

- كيف تدبرين أمور حياتكِ يا منى؟ هل لكِ مصدر دخل؟
- نعم، أتقاضى معاش والدي ووالدتي ويكفياني لتحمُّل أعباء المعيشة.
- لماذا لم تتزوجي يا منى؟
- أجبتك من قبل على هذا السؤال، إنه النصيب.
- دعكِ من هذه الإجابات الدبلومسية، أريد الحقيقة يا منى.

نظرت منى في عينيه مجيبة: لا أستطيع أن أتزوج رجلًا وقلبي مُعلَّق برجلٍ آخر.

نظر عصام أمامه متفاديًا النظر في عينيها ليقول:

- أتيتِ متأخرةً يا منى، هل تريدين أن أظلمكِ كما ظلمت وفاء من قبل؟ أنا الآن في الثالثة والستين من عمري، ورغم تأخُّر الضوء إلا أني على يقين أنه آتٍ لا محالة ليخطفني إلى إحدى غرف الكهف المظلمة مرة أخرى، عيناي لا تراكِ إلا الأخت والجارة والصديقة، أمَّا قلبي فلن تملأه إلا وفاء رغم ما فعلته بي.

ثم عاود النظر إليها متابعًا حديثه:

- أصبحتُ مقتنعًا تمامًا أنها لم تخطئ بما فعلت، فالأمر حقًّا لا يُحتمَل.

ردت منى وقد امتلأت عينيها بالدموع التي تحاول حبسها دون جدوى:

- ومَن قال لك أنك أنت هذا الرجل؟ أنا أتحدَّث عن رجل آخر.

أمسك عصام برأسها مُقبِّلًا جبينها ثم حاول أن يُزيل آثار الدموع المنهمرة على وجنتيها ليردف قائلًا:

- يا منى، لقد تزوجت وفاء بضعة أشهر فقط ثم انقطعت علاقتي بالزواج اثنين وأربعين عامًا، لم أعُد أعرف ما يفعله المتزوجون بعد، من هذه اللحظة لا تعتبريني أخًا لكِ، بل اعتبريني أختًا لكِ.

ضربته منى على كتفه ناظرةً إليه بعينين باسمتين دامعتين وقالت:

- اخرس، لقد جعلك هذا الكهف أكثر وقاحةً.

الخميس ٥- يناير -٢٠٢٣

وصلت الحافلة إلى فندق الإقامة بمدينة شرم الشيخ ليحمل كلٌّ منهم حقائبه متجهًا لغرفته بعد إنهاء الإجراءات باستقبال الفندق ليتفقوا على تبديل ملابسهم ثم النزول لتناول وجبة الغداء وبعدئذٍ التجمُّع حول (المسبح) لتبدأ رحلتهم وسط أجواء من السعادة والبهجة، لينتهي يومهم الأول بالذهاب إلى غرفهم للنوم.

الجمعة ٦- يناير – ٢٠٢٣

لم يختلف يومهم الثاني كثيرًا عن اليوم الأول إلا أنهم انطلقوا في رحلة بحرية على متن أحد اليخوت؛ ليستمتعوا بمشاهدة الشعاب المرجانية الخلَّابة والأسماك ذات الألوان البديعة والسلاسل الجبلية التي تحتضن البحر الأحمر وكأنها لوحة رائعة الجمال رسمها الخالق ليستمتع بها البشر.

السبت ٧- يناير – ٢٠٢٣

اصطحب عصام عائلته لتناول وجبة الإفطار صباحًا ثم اتجهوا إلى المسبح ليصطحب عمر زوجته وأبناءه وتتبعهم منى للاستمتاع باللعب في المياه، بينما يجلس عصام على أحد المقاعد المحيطة بالمسبح ليستحي

فنجانًا من القهوة مُشعِلًا لُفافة من التبغ أشار له عمر من داخل المسبح ليشاركهم اللعب، فأومأ عصام بيديه الممسكتين بالقهوة ولُفافة التبع بما يعني أنه سيأتي بعد الانتهاء منهما، وما هي إلا لحظات لتستقط لفافة التبغ وفنجان القهوة من يدي عصام ليشعر بألم شديد بصدره وكتفه الأيسر وضيق بالتنفس، فهو يحاول أن يملأ رئتيه بالهواء دون جدوى، وإذ به قد سقط على الأرض.

لاحظ عمر ما يحدث لوالده فهرعوا إليه جميعًا مُحاولين إفاقته دون جدوى، هرول عمر تجاه استقبال الفندق ليسألهم عن إمكانية إحضار سيارة إسعاف، وبينما يُخرِج (عصام الحفيد) هاتفه الجوال ليتصل بالإسعاف ما هي إلا دقائق قليلة لتأتي سيارة الإسعاف ليُنقَل عصام إلى أقرب مستشفى.

استقرَّ بإحدى غرف الرعاية المركزة، ووقفت منى وعمر وإيناس والأحفاد خارج غُرفة العناية يتابعون محاولات الأطباء لإنقاذ عصام من وراء لوح زجاجي.

فتح عصام عينيه فجأةً فإذا بالظلام الدامس يحيط أرجاء الغرفة.. تلك الغرفة الحجرية داخل الكهف، رقد عصام على الأرض الرملية لغرفة الكهف شاعرًا بالإعياء الشديد، أخذ يتحسَّس بيده المرتعشة أرضية الغرفة باحثًا عن حقيبته ليخرج كشافه المضيء.

وقف عمر وأسرته خلف اللوح الزجاجي يتابعون الأطباء وقد أتوا بجهاز الصدمات الكهربائية لمحاولة إنقاذ والدهم.

حاول عصام الوقوف على قدميه ليسقط على الأرض مرة أخرى منتفضًا وكأنَّ تيارًا كهربائيًّا يسري في جسده، عاود المحاولة للوقوف مرة أخرى محركًا كشافه المضيء بجنبات الغرفة الحجرية داخل الكهف ليُفاجَأ بأمر عجيب.. ثمَّة باب حجري ذو مقبض خشبي على يمينه وباب حجري آخر ذو مقبض خشبي على يساره، سلَّط ضوء كشافه على الباب الموجود جهة اليمين ليجده وقد نُقِشت عليه كلمة (السابع) ثم اتجه للباب الموجود على يساره والذي نُقِشت عليه كلمة (الأول)، وقف عصام بينهما حائرًا، أيُّهما يفتح؟ الباب (الأول) أم الباب (السابع)؟

تمَّت.. بحمد الله

المؤلف

هشام البراوي